حسن الصفار

القيَادات الدينيّة

الخطاب والأداء الاجتماعي

أطياف للنشر والتوزيع

القيادات الدينية

الخطاب والأداء الاجتماعي

على ضوء مصادر فقه الشيعة الإمامية

ⓗ حسن موسى الصفار، ١٤٣٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الصفار، حسن موسى
القيادات الدينية الخطاب والأداء الاجتماعي على ضوء مصادر الشيعة الإمامية/ حسن موسى الصفار ـ القطيف، ١٤٣٣هـ
١٧٠ ص؛ ٢١,٥ × ١٤,٥سم
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٠-٩٠٧٣-٠
١ـ الإمامية (فرقة شيعية)   أ. العنوان
ديوي ٢٤٧,٨   ٧٨١/ ١٤٣٣
رقم الإيداع: ٧٨١/ ١٤٣٣
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٠-٩٠٧٣-٠

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م

اطياف للنشر والتوزيع
هاتف / فاكس: ٨٥٤٩٥٤٥ (٣) ٩٦٦ +
جوال: ٠٥٠٥٨٦٨٧٧١ - ٩٦٦ +
القطيف - شارع القدس
ص.ب ٦١٢٩٥ القطيف ٣١٩١١
المملكة العربية السعودية
E-mail : atyaf-pd@hotmail.com

للنشر والتوزيع

حسن بن موسى الصفار

القيادات الدينية

الخطاب والأداء الاجتماعي

على ضوء مصادر فقه الشيعة الإمامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين اللّهم صلِّ على محمد خاتم النبيين وتمام عدة المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

مقدمة

إنسان هذا العصر أصبح أكثر معرفة واطّلاعًا، حيث تتوفر المعلومات والتقارير بين يديه حول أي شأن من الشؤون أو أي قضية تهمه من القضايا، وقد انحسرت رقعة الأسرار والممنوعات إلى حدٍّ كبير، حتى محاضر اللقاءات الخاصة لدهاقنة السياسة الدولية وجدت طريقها للتسريب والنشر عبر موقع ويكيلكس وغيره.

ومع تطور تكنولوجيا التواصل والاتصالات فإنه يمكن تسجيل وتوثيق كل كلمة تلفظ، أو حركة تحدث في أيّ بقعة من العالم، ويمكن تخزينها واستدعاؤها عند الطلب والحاجة.

وأصبح الإنسان اليوم أكثر ثقة بنفسه، حيث لا يحجم عن التفكير في أيّ أمر، ولا يتردد في تقرير أيّ رأي وموقف يقتنع به.

كما تعززت لدى الإنسان المعاصر جرأة التعبير عن رأيه، حيث تقلصت سلطات القمع والبطش، وأمكن تجاوز حواجزها ورقابتها إلى حدٍّ كبير.

وفقدت مراكز القدرة والقوة في المجتمع البشري الكثير من هيبتها ورهبتها المادية والمعنوية، التي كانت تُحكم بها سيطرتها على من حولها، وتمنعهم من النقد والاعتراض والتمرد عليها.

حتى الأسرة لم تعد قادرة على الهيمنة على أفرادها كما في الزمن الغابر، حيث كانت الزوجة والأولاد يعلنون الخضوع التام لربِّ الأسرة.

فقد تطور الوعي الحقوقي بين بني البشر، وأصبحوا مهتمين بالتمتع بتلك الحقوق وممارستها في حياتهم، ضمن مختلف المواقع، وأصبحت تلك الحقوق محميّة بسياج من القوانين والمواثيق والمعاهدات الدولية، والرأي العام العالمي.

كما تواجه الحكومات وخاصة غير الديمقراطية تحديًا أكبر في ممارسة سلطتها وهيمنتها على شعوبها.

ونصل في هذا السياق إلى الحديث عن مواقع القدرة المعنوية المتمثلة في المؤسسة الدينية والقيادات الروحية من علماء الدين، فهل هم في منأى عن هذه التطورات؟

هل يحظون اليوم بذات الدرجة التي كانوا يتمتعون بها في الماضي من الهيبة والتقديس؟

هل لا يزال علماء الدين والمؤسسة الدينية منطقة محظورة لا يقتحمها النقد والاعتراض؟

صحيح أن دور الدين قد تصاعد في المجتمعات، وتبعًا لذلك زاد نفوذ

علماء الدين وتأثيرهم.

لكن ذلك أيضًا أدى إلى تسليط الأضواء عليهم، فأصبحوا تحت المجهر، وهناك مراكز وأطراف تشعر بمنافسة القوى الدينية لنفوذها، فتسعى لإضعافها والنيل من مكانتها ودورها في المجتمع.

كما أن الوسط الديني ليس مجتمعًا ملائكيًا، ومن الطبيعي أن تعتريه النواقص، وتحدث فيه الثغرات، شأن كل مجتمع وأداء بشري.

وفي صفوف علماء الدين قد تتعدد الاتجاهات، وتتنوع الانتماءات، وتختلف الآراء، وتتضارب المصالح، وبالتأكيد لن تنحصر خلافاتهم في داخلهم، ولن يمكن التستر عليها، بل سيسعى كل طرف منهم للانتصار بالمجتمع على الطرف الآخر، ذلك لأن كسب الجمهور هو ساحة التنافس.

وملحوظ أن تجريح بعض علماء الدين لبعضهم، خارج إطار النقاش العلمي، هو ما شجع الآخرين وجرّأهم على النيل من مكانة علماء الدين، وتشويه سمعتهم.

لكل ما سبق، فإن من الطبيعي أن تثار التساؤلات، ويحصل النقد والاعتراض على بعض مواقف وأداء المؤسسة الدينية، وعلى تصرفات وممارسات بعض المنتمين إليها.

ولم يعد ممكنًا ردع هذه التساؤلات والاعتراضات بالوعيد والتحذير الوعظي، كالقول بأن لحوم العلماء مسمومة، وأن الرادّ عليهم كالرادّ على اللّٰه ورسوله.

كما لا يصح تجاهل حالة النقد والاعتراض؛ لأن ذلك يعني اتساع رقعتها، وإضعاف الحالة الدينية، وانحسار دور العلماء، وحصول ردة فعل من الجيل الجديد تجاه الدين.

والمنحى الصحيح الذي يجب أن تسلكه المؤسسة الدينية، هو استقبال النقد والتساؤلات برحابة صدر، ودراستها بموضوعية، والإجابة عنها بوضوح، والإقرار بمواقع الخطأ، والسعي للمعالجة والتصحيح، وتشجيع النقد الذاتي في الوسط الديني، انطلاقًا من التوجيه النبوي الكريم: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا وزِنُوها قبل أن تُوزنوا»[١].

ضمن هذا السياق جاءت فكرة كتابة هذه الصفحات الماثلة بين يدي القارئ الكريم، حيث تناقش بعض ما يُثار حول الخطاب الديني وأداء المؤسسة الدينية، والممارسة السلوكية لبعض المنتمين إليها.

وهي مساهمة في الاستجابة لتحدي بعض التساؤلات والانتقادات، وممارسة لشيءٍ من النقد الذاتي، كتبتها في أوقات متباعدة، من وحي بعض الأحداث والمناسبات، أرجو أن يكون في نشرها نفع وفائدة. وأن يتقبلها اللَّه بأحسن القبول إنه يقبل اليسير ويعفو عن الكثير وهو ولي التوفيق والتسديد.

حسن بن موسى الصفار

٨ ذو القعدة ١٤٣٢هـ

٣ أكتوبر ٢٠١١م

---

[١] محمد بن الحسن الحر العاملي. وسائل الشيعة، ج١٦، الطبعة الأولى١٤١٣هـ (بيروت: مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث)، ص٩٩، حديث٢١٠٨٢.

الفصل الأول

الدور القيادي ومشروعية النقد

علماء الدين بين التقديس والنقد

لا شك أن وجود فئة متخصصة في علوم الدين، ومهتمة بتبيين مفاهيمه وأحكامه للناس، هو أمر مطلوب وضروري في أيّ مجتمع ينتمي إلى الدين.

وبالإضافة إلى الدور المعرفي الذي تقوم به هذه الفئة ـ علماء الدين ـ فإن لها دورًا اجتماعيًّا مهمًّا، يتمثل في تحفيزها المجتمع للالتزام بالقيم والأخلاق، وفي كونها رموزًا وقدوات للناس، يتأسّون بها، ويلتفون حولها، مما يعزّز تلاحم المجتمع وتضامنه.

لذلك أوجب الإسلام وجود هذه الفئة في أوساط مجتمعات الأمة، بمقدار ما يستلزمه دورها ووظيفتها، على نحو الوجوب الكفائي، يقول تعالى: ﴿..فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾[سورة التوبة، الآية: ١٢٢].

لكن هذه الشريحة ـ علماء الدين ـ هي جزء من المجتمع، ومعرّضة

للإصابة بمختلف الأمراض والنواقص التي قد تعرض لأيّ فرد من أبناء البشر، فهم حالة بشرية، لا تخلو من نقاط الضعف وموارد الخطأ.

لذلك، فإن النصوص الدينية في الوقت الذي تدعو فيه إلى احترام العلماء وتقديرهم، وأخذ تعاليم الإسلام منهم، يقول تعالى: ﴿فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[سورة النحل، الآية: ٤٣]، فإنها في الوقت ذاته تدعو إلى اليقظة والانتباه، حتى لا يتسلّل إلى هذه الشريحة مشبوهون ومنحرفون، أو يستغل أيّ أحد من أفرادها مكانته وموقعيته على حساب المبادئ ومصلحة المجتمع، وحتى لا يتحول الخطأ الذي قد يقع من أحدهم عن قصد أو غير قصد إلى دين وتشريع.

وقد تحدثت كثير من الأحاديث والروايات الواردة عن النبي ﷺ، والأئمة الأطهار ﴿عليهم السلام﴾، عن وجوب الحذر والحيطة من الانخداع بالعلماء غير الصالحين، أو قبول ما يتنافى مع قيم الدين بسبب التدليس والتحريف.

كما أن آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن انحرافات وتحريفات بعض علماء الديانات السابقة، من اليهودية والنصرانية، تبعث برسالة تحذير وتنبيه لأبناء الأمة الإسلامية، حتى يأخذوا موقف الوعي والبصيرة في التعاطي مع هذه الظاهرة حين تحدث في وسط علماء الأمة.

ومن تلك الآيات الكريمة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[سورة آل عمران، الآية: ٧٨].

فالآية تفضح دور قسم من علماء أهل الكتاب، الذين يعطون لآرائهم النابعة من أهوائهم وتوجّهاتهم المصلحية المنحرفة صفة القداسة الدينية، وكأنها أوامر شرعية، يقحمونها بين تعاليم وآيات الكتاب السماوي، ليوهموا الناس أنها نازلة من عند اللّٰه تعالى.

والتزامًا بالموضوعية والإنصاف، فإن القرآن الكريم لم يعمِّم التهمة على جميع علماء اليهود والنصارى، وإنما خصّ جزءًا منهم: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾.

وتشير الآية الكريمة إلى أن هذا الفريق من علماء السوء في جميع الديانات الإلهية، يتفنّنون في أساليب التضليل حتى لا يكتشف الناس خيانتهم للدين، وتحريفهم لنصوصه المقدسة، بمزج كلام من عندهم بالنصّ الديني، ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾، حيث يقدّمون ذلك الكلام الزائف بالطريقة نفسها التي يقدمون بها النص المقدس، ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾، ليتوهم الناس أن ما قالوه هو جزء من الدين.

وقد يصرفون ألفاظ النص الديني إلى غير المعنى المقصود من قبل اللّٰه تعالى، كما تقول آية أخرى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾[سورة المائدة، الآية: ١٣].

خطر التحريف

إن من أسوأ الأخطار التي تصيب الدين هي الافتراء عليه من داخله، أي من العلماء الذين يعتبرهم الناس مصدرًا لتعاليم الدين وأحكامه،

فيصدّرون للناس فتاوى وآراءً تخالف قيم الدين ومصلحة الأمة، بدوافع مصلحية، لخدمة الذات، أو انحيازًا لمصلحة فئة، أو تعصبًا لمذهب واتجاه، وينسبون تلك الفتاوى والمواقف للدين، ويعطونها صفة التكليف الشرعي.

وقد رأينا في عصرنا الحاضر كيف أدّت بعض الفتاوى والآراء إلى نشوء توجّهات إرهابية، تمارس العنف ضد الأبرياء، وتستبيح الدماء، وتنتهك الحرمات، خارج الأمة وداخلها.

كما رأينا مواقف التعبئة والتحريض الطائفي بعناوين دينية، كحماية العقيدة، ومحاربة الشرك والبدع، والدفاع عن المذهب، وما أنتجته من مشاريع فتن وتمزيق ونزاع واحتراب.

وفي داخل المذاهب تحصل صراعات تستخدم فيها الفتاوى الدينية بين الأطراف المختلفة في الرأي أو المصلحة، مما يتنافى مع حقوق الأخوة الإيمانية، ويتعارض مع احترام حق الاجتهاد واختلاف الرأي، ويجعل مجتمع المؤمنين ساحة نزاع وصراع.

وفي موارد كثيرة جرى توظيف الدين من قبل البعض لخدمة مواقف وتوجّهات سياسية.

إن هذه المشاهد المؤلمة المؤسفة هي بعض نتائج سوء الممارسة في الوسط الديني، بعناوين وتبريرات تنسب إلى الدين.

حتى إنه يمكن القول: إن بعض أوساط هذه الفئة من علماء الدين

بدل أن تساهم في حلّ مشاكل الأمة، أصبحت مصدرًا لمشاكل إضافية عويصة، وبين وقت وآخر نرى انشغال الحالة الدينية في هذه المنطقة أو تلك بالخلافات الداخلية التي تربك ساحتها، وتسبب ردود فعل سلبية تجاه الدين والمتدينين.

وإذا كان حدوث مثل هذه الحالات والظواهر أمرًا متوقّعًا؛ لأن أفراد هذه الشريحة ـ علماء الدين ـ ليسوا ملائكة ولا معصومين، وليسوا بعيدين عن التأثر بأوضاع وأجواء محيطهم الاجتماعي، فإنه لا بدّ من وجود آليات للحدّ منها، ولتحصين المجتمع من آثارها السلبية.

وسنعرض الحديث عن بعض الآليات والوسائل التي يمكن الإفادة منها في مواجهة هذه الظواهر:

التربية الأخلاقية

يتركز اهتمام الدروس في الحوزات العلمية، والمعاهد الدينية، على الإعداد العلمي لطلابها، وغالبًا ما يهمل جانب التربية الروحية الأخلاقية، مما يفسح المجال لنمو النزعات الفردية الأنانية، وتسرب التوجّهات المصلحية، وقد يأتي بعض الطلاب للدراسة الدينية من بيئة غير صالحة، أو دون سابق إعداد تربوي، كما قد تسعى بعض الجهات المناوئة لزرع عناصر مغرضة في الوسط العلمي، أو للتأثير على بعض الأفراد فيها.

كل ذلك يوجب ضرورة التركيز والاهتمام برعاية الجانب التربوي الأخلاقي، لطلاب العلوم الدينية. وقد أكد هذه الضرورة عدد من كبار

المراجع والعلماء، وحذّروا من تجاهلها، كالشهيد الثاني زين الدين العاملي ٩١١-٩٦٥هـ في كتابه منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، والإمام الخميني في محاضراته عن الجهاد الأكبر جهاد النفس، والمرجع الراحل السيد الشيرازي في كتابه إلى وكلائنا في البلاد، وكثير من كتبه ومحاضراته.

مأسسة الحالة الدينية

تعاني الحالة العلمية الدينية في معظمها من غياب الأطر المؤسّساتية، مما يكرّس التوجه الفردي عند علماء الدين، بدءًا من مرحلة الدراسة، حيث لا توجد في غالب الحوزات العلمية عند الشيعة أنظمة ملزمة، بل يختار الطالب بحريّته نوع ومكان وعدد دروسه، وشخصيات مدرسّيه، ولا أحد يحاسبه على حضوره وغيابه، ولا تحديد لمدة دراسته وتخرجه، أو انتقاله من مرحلة علمية إلى أخرى.

صحيح أن هناك أعرافًا وتقاليد سائدة في الوسط الحوزوي، لكنها ليست ملزمة، وخاصة لمن يرغب في تجاوزها.

وربما كانت هذه الحرية المفتوحة في الحوزات العلمية ملائمة لعصور وظروف سابقة، أو كانت لتجاوز محاولات بعض السلطات للّهيمنة على الحوزة، مما دفع بعض قياداتها لرفع شعار: أن الحوزة نظامها اللانظام.

لكن الظروف الحاضرة، والتطورات في الحياة الاجتماعية، تفرض وجود قوانين ناظمة لأوضاع الحوزات، وحامية لها من الاختراقات والتسيّب.

وقد بدأ هذا التوجه يفرض نفسه، وخاصة في حوزة قم العلمية، مع

ممانعة لا تزال قائمة في بعض الأوساط التقليدية.

وحين يعود طالب العلم إلى مجتمعه ليقوم بدوره الديني، فإنه لا يرتبط بأيّ جهة أو مؤسّسة ترعى دوره وتراقب تجربته، لا من قبل الحوزة العلمية التي تنقطع صلتها به، ولا من قبل أيّ إطار مؤسّسي في منطقته لعدم وجود مثل ذلك غالبًا.

فيبدأ تجربته بمفرده، وقد يواجه في بعض الأحيان مشاعر غير إيجابية من العلماء السابقين له في منطقته، باعتباره منافسًا لهم، أو مختلفًا عنهم في بعض توجّهاته وانتماءاته.

كل ذلك يخلق الأرضية لنمو التوجّهات الأنانية والاهتمامات المصلحية، والممارسات غير الأخلاقية في الوسط الديني.

إن وجود رعاية من كبار العلماء في كل منطقة للحالة الدينية فيها، باحتضان جميع العلماء والطلبة، ومساعدتهم على أخذ أدوارهم ومواقعهم، ودعمهم في أداء وظائفهم ورسالتهم، وتفقد أمورهم وشؤونهم الحياتية، وتوفير أجواء المشاورة والتناصح فيما بينهم، وتشجيعهم على التعاون والتكامل، يساعد كثيرًا على تجاوز السّلبيات، ويمكّن من الاستفادة من الطاقات، وبذلك تتقدم الحالة الدينية وتتطور.

كما أن المتوقع من المرجعية الدينية أن تضع نظامًا للتواصل بينها وبين العلماء والوكلاء في المناطق والأطراف، لتواكب مسيرتهم، وتراقب أداءهم، وتعطي التوجيهات اللازمة لمعالجة السلبيات والأخطاء التي قد تحصل في

أوساطهم، حتى لا تنحصر العلاقة بهم في إطار قبض الحقوق الشرعية والإجابة عن الاستفتاءات.

تحصين المجتمع بالوعي

تركيز مكانة عالم الدين في المجتمع أمر مطلوب، واحترام الناس له مما حثّت عليه النصوص الدينية، لتعزيز موقعية الدين.

لكن وجود ظواهر سلبية في الوسط الديني تهدِّد بأخطار وأضرار بالغة، من أبرزها:

- فقدان الحالة الدينية لمصداقيتها، وحصول نفور عند البعض من الدين، كردّ فعل لهذه الظواهر السلبية.
- انخداع الناس بنماذج غير صالحة ضمن هذا الوسط، يعطي هذه النماذج الفرصة لاستمراريتها في الخطأ ولخدمة توجّهاتها الخاطئة، ويقود أتباعها إلى الطريق الخاطئ.
- تتعرض الساحة الدينية للَّهزات والإرباكات وتنشغل بالمشاكل والأزمات الداخلية.

ومما يبدو لنا من نهج القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، والروايات الواردة عن الأئمة الأطهار عليهم السلام، هو ضرورة تحصين المجتمع بالوعي، حتى لا يتعامل الناس مع كل عالم دين بالتقديس المطلق والثقة العمياء، بل لا بدّ من إعمال العقل، واستخدام الفكر، والنظر إلى الأشخاص والأدوار والممارسات بعيون مفتوحة، وبصيرة واعية.

فقيم الدين واضحة، ومصالح المجتمع تدركها العقول، ولا قداسة مطلقة لغير المعصوم.

وهذه هي الرسالة التي تريد إيصالها الآيات الكريمة التي تتحدث عن فساد وانحراف قسم من علماء أهل الكتاب، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[سورة التوبة، الآية: ٣٤].

إن توجيه الخطاب للذين آمنوا هو لتحذيرهم من حصول مثل هذه الظاهرة في طبقتهم الدينية.

كما أن هناك عددًا كبيرًا من الأحاديث والروايات التي تحذّر من علماء السوء.

روي عنه ﷺ أنه قال: «ويلٌ لأمتي من علماء السوء»[١].

وجاء عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: «لا علم إلّا من عالم رباني، ومعرفة العالم بالعقل»[٢].

أي إن على الإنسان أن يستخدم عقله لتقويم العلماء، ومعرفة الجدير بالاقتداء منهم، وتمحيص توجهاتهم.

---

[١] علاء الدين علي المتقي الهندي. كنز العمال، الطبعة الخامسة ١٩٨٥م، (بيروت: مؤسسة الرسالة). حديث ٢٩٠٨٤.

[٢] الحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي. مستدرك الوسائل. ج١١، الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث)، ص٢٥٨، حديث ١٢٩٢٦.

النقد البنّاء

السكوت على الأخطاء يراكمها، وقد يصدر الخطأ بسبب غفلة أو اشتباه، فوجود ناصحين ناقدين يدفع للتراجع عن الخطأ، كما أن شعور أيّ جهة بأنها معرضة للنقد وأن أعمالها تحت المجهر، يجعلها أكثر اهتمامًا بضبط ممارساتها حفاظًا على سمعتها وموقعيتها.

ومن مشاكل ساحتنا الدينية رفضها للنقد، والتشكيك في أيّ ناقد أنه ضد الدين، ومناوئ للحالة الدينية، واعتبار النقد سببًا لإضعاف دور العلماء وإسقاط مكانتهم، وتحقيقًا لأهداف أعداء الدين والأمة.

وهذا التفكير ليس صحيحًا، وليس مقبولًا؛ لأنه يخالف نهج القرآن والنصوص الدينية الأخرى، ويخالف منطق العقل، فالنقد والمعارضة سبب لاكتشاف الخطأ، ودافع لتصحيحه في كل مجال من المجالات.

وما أحوج ساحتنا الدينية إلى النقد البنّاء، فهو البديل الصحيح عن التهريج والتعبئة بين الأطراف المختلفة، وهو الذي يتيح فرصة التغيير والتطوير إلى الأفضل.

إن عالم الدين يجب أن يشجع من حوله على النقد وإبداء وجهات نظرهم، ليستفيد من ذلك في إصلاح ذاته، وإنجاح دوره، لا أن يفرض عليهم الرهبة والهيبة التي تمنعهم من إبداء آرائهم وانطباعاتهم.

فقد ورد أن رسول اللّه ﷺ، حين رأى إعرابيًا قد أخذته الرهبة منه ﷺ،

قال له: «هوّن عليك إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد في مكة»[١].

بل إن على عالم الدين أن يضع برنامجًا لإشراك الناس معه في اتخاذ القرارات وإدارة الشؤون الدينية التي يقوم بها، وأن يتّسع صدره للنقد والاعتراض، فقد أمر اللّه رسوله محمدًا ﷺ، على عصمته وكماله، أن يستشير مَنْ حوله، يقول تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩].

من جانب آخر، فإن على الواعين من أبناء المجتمع ألّا يتردّدوا في إيصال نقدهم وإبداء ملاحظاتهم لعلماء الدين، وأن يجهروا لهم بآرائهم الناقدة، ما دام الهدف هو الإصلاح وحماية المصلحة الدينية.

■■■

[١] محمد بن عبداللّه الحاكم النيسابوري. المستدرك على الصحيحين، ج٢، الطبعة الأولى ١٤١١هـ (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٥٠٦، حديث٣٧٣٣.

الفقيه ومتغيرات البيئة الاجتماعية

تختلف أوضاع المجتمعات الإسلامية باختلاف البلدان التي يعيشون فيها، والبيئات التي ينتمون إليها، حيث تتفاوت طبيعة الأنظمة والظروف السياسية، بين وضع سياسي مستقر، ووضع قلق مضطرب، وبين نظام يتيح فرصة المشاركة السياسية وحرية الحركة والتعبير، وآخر تنعدم في ظله تلك الفرص، وقد يكون النظام ملتزمًا بمبادئ الإسلام وشريعته، أو يكون علمانيًا محاربًا للدين، أو محايدًا تجاهه.

كما تتفاوت الظروف والأوضاع الاجتماعية: من حيث التجانس أو التنوع القومي والديني، ومن حيث التوازن والاستقرار في العلاقة بين الأطراف المتنوعة في الوطن الواحد.

وهناك اختلاف على مستوى الثقافات والعادات والأعراف السائدة في كل مجتمع. كما أن لطبيعة الظروف الحياتية والاقتصادية المختلفة انعكاسات على أنماط التفكير والسلوك في المجتمعات، بين مجتمع حضري

وآخر بدوي، ومجتمع زراعي وآخر صناعي، ومجتمع يعيش الرخاء والوفرة المادية، وآخر يعاني من الأزمات والصعوبات الاقتصادية.

هذا الاختلاف في أوضاع وظروف المجتمعات، يُنتج اختلافًا في ألوان التحدّيات والإشكاليات التي تواجهها، وحين تتطلب هذه التحدّيات والإشكاليات معالجات شرعية، وتوجيهًا دينيًا، فإن الفقهاء هم الجهة التي يُرجع إليها، ويُلجأ لها لأخذ أحكام الدين، وآراء الشرع، في النوازل والحوادث الواقعة.

وبما أن بعض المجتمعات قد تخلو من وجود فقهاء في أوساطها، يعايشون معها التحدّيات التي تواجهها، ويدركون بالمباشرة انعكاسات الظروف والأوضاع على الأبعاد المختلفة من حياتها، فإنها حينئذٍ إما أن تعيش الحاجة والفراغ في مجال التوفر على معالجات وحلول شرعية لقضاياها ومشاكلها، وإما أن تلجأ إلى الاستفادة من آراء وطروحات الفقهاء من خارج محيطها وبيئتها.

وهنا قد تثار إشكالية تتعلق بمدى قدرة الفقيه من خارج البيئة الاجتماعية، على التشخيص الدقيق للموضوعات التي تتطلب الرأي الشرعي، وفيها ما يتعلق بالشأن السياسي، وما يرتبط بالواقع الاجتماعي، وما يلامس الأمر الاقتصادي، أو يدخل في نطاق المسألة الثقافية.

المرجعية والضوابط الشرعية

لا بدّ من التأكيد هنا بأن للمرجعية الدينية شروطًا ومواصفات ليس

من بينها الاعتبارات المادية والاجتماعية، فمن يرجع إليه في أخذ الحكم الشرعي، يجب أن يكون فقيهًا، أي مجتهدًا قادرًا على استنباط الحكم الشرعي من مصادره المقررة، وأن يكون عادلًا نزيهًا لا يخالف في سلوكه وممارساته شيئًا من أوامر الدين. وقد تشترط فيه الأعلمية بأن يكون الأعلم من غيره، كما هو الرأي المشهور لفقهاء الشيعة المعاصرين.

أما الاعتبارات المادية: كالنسب، أو القومية، أو الجنسية بأن يكون من رعايا هذه الدولة أو تلك، فليس لها اعتبار في اختيار المرجع، إذا ما فقدت الشروط الأساسية المطلوبة.

وبحمد اللّه تعالى فقد بقيت المرجعية الدينية بعيدة عن تأثير هذه الاعتبارات غالبًا، فقد يكون المرجع الديني عربيًا أو فارسيًا أو تركيًا، أو عراقيًا أو إيرانيًا أو باكستانيًا أو غير ذلك، وقد يكون هاشميًا في نسبه، أو ينتمي إلى نسب آخر.. وبقي مقياس الاختيار غالبًا هو الكفاءة العلمية ومستوى العدالة والالتزام الديني.

والحديث عن أهمية وجود الفقيه ضمن البيئة المحلية الاجتماعية، لا يعني تجاوز تلك الضوابط الشرعية لصفات المرجع الديني، وإنما هي عنصر إضافي إلى جانب تلك المواصفات.

كما أنه لا تلازم بين وجود الفقيه المحلي وبين المرجعية والتقليد، فقد يكون المرجع خارج البلاد، وضمن الحوزات العلمية المركزية، كالنجف الأشرف وقم، لتوفره على صفة الأعلمية، ويكون وجود الفقيه في المجتمع وإن لم يكن مقلدًا، عاملًا مساندًا ومساعدًا للمرجعية، تعتمد عليه في

تشخيص الموضوعات، وتقويم الظروف، وتقديم المعالجات، وتناط به مهمة القضاء والقيام بالأمور الحسبية الأخرى. وهذا ما حصل في الماضي ويحصل بالفعل في عدد من البلدان والمجتمعات.

ومن أواخر الأمثلة والشواهد دور السيد موسى الصدر ١٩٢٨ ـ ١٩٧٨م والشيخ محمد مهدي شمس الدين ١٣٥٠ ـ ١٤٢١هـ في لبنان، فقد كانا فقيهين، قام كل منهما بدور قيادي في الساحة اللبنانية، وقدّما معالجات نافعة لمشكلات المجتمع هناك، وكانا على تواصل وتنسيق مع المرجعية الدينية.

وفي القطيف يمكن الإشارة إلى دور الفقيه الشيخ علي الجشي ١٢٩٦ ـ ١٣٧٦هـ الذي تولى القضاء وكان محلّ ثقة المرجعية واعتمادها.

والفقيه الشيخ محمد الهاجري ١٣٤٤ ـ ١٤٢٥هـ شكّل نموذجًا لهذه الحالة على الساحة الأحسائية. وهناك نماذج مماثلة في ساحات أخرى.

الحكم الشرعي هل يتأثر بالبيئة؟

قد يؤثر اختلاف الأوضاع والبيئات الاجتماعية في استنباط الحكم الشرعي من قبل الفقيه، أو في كيفية تطبيقه، ويتضح ذلك من خلال الموارد التالية:

١. تغيّر العناوين والموضوعات من زمن لآخر ومن بيئة إلى أخرى، ومن أمثلته المتداولة بين الفقهاء صدق المثلي والقيمي، حيث كانت الألبسة والأواني تعدّ من القيميات في الماضي؛ لأن صناعتها يدويًا

كانت تسبب اختلافًا في مواصفاتها يؤثر في قيمتها، لكنها الآن تعد من المثليات. حيث تنتجها الآلات والمصانع فهي متماثلة متشابهة.

والقيمي في الاصطلاح الفقهي: ما لا يوجد له مثل في السوق، أو يوجد لكن مع التفاوت المعتدّ به في القيمة. أما المثلي فهو ما يوجد مثله في السوق بدون تفاوت يعتدّ به.

وهناك بعض المسائل الشرعية التي ترتبط بهذا التغيّر في صدق القيمي والمثلي، كضمان ردّ المغصوب إذا تلف بمثله إن كان مثليًا، وبقيمته إن كان قيميًا. وكإقراض المثلي والقيمي وما يثبت عوضًا له في الذمة.

ومن أمثلة تغيّر العناوين: صدق المكيل والموزون على شيء، حيث إن الحكم الشرعي بيع المكيل بالكيل، والموزون بالوزن، لا بالعدّ، ولكن هذا يختلف حسب اختلاف البيئات والمجتمعات، ويلحق بكل حكمه. فقد يباع البيض مثلًا في بعض المناطق بالوزن، وفي أخرى بالعدّ. فلو باعه بالعدّ في المناطق الأولى، أو بالوزن في المناطق الأخرى لم يكن البيع صحيحًا. وكذلك لو باع البيضة ببيضتين والجوزة بجوزتين في الأماكن التي يباع فيها بالعد لا يكون من الربا، بينما يكون ربًا في المناطق التي يباع فيها بالوزن عند اختلاف وزنها.

وكذلك فإن المصاديق الخارجية لبعض العناوين التي ترتبط بها أحكام شرعية قد تختلف باختلاف البيئات، فيختلف الحكم تبعًا لذلك، فالاستطاعة والفقر والغنى، ومقدار النفقة، والمعاشرة بالمعروف للزوجة، مصاديقها وحدودها متفاوتة من مجتمع لآخر.

٢. اختلاف المقاصد والملاكات، فالأحكام الشرعية لها استهدافات ومناطات تابعة للمصالح والمفاسد، وحين يكون المناط والمقصد واضحًا أمام الفقيه، فإنه يأخذه في الاعتبار حين تختلف الظروف والبيئات، فيتغير الملاك، ويتغير الحكم تبعًا لذلك.

فمثلًا: كان بيع الدم محرّمًا في الماضي لعدم وجود منفعة مباحة له، لكن بيع الدم لم يعد الآن حرامًا لوجود الحاجة إليه لإسعاف المرضى.

وكان التصرف في جسد الميت بقطع شيء منه حرامًا؛ لأنه كان يحصل في الماضي بقصد التمثيل والانتقام، لكنه الآن أصبح ضروريًا في بعض الحالات لزرع الأعضاء وإنقاذ حياة المشرفين على الموت، فلا يعتبر حرامًا لهذه الغاية.

٣. تطور أساليب الحياة بما يؤثر على كيفية تطبيق الأحكام الشرعية، فإذا كانت الغنائم الحربية سابقًا في حدود السيف والرمح والفرس وما شابه، فإنها من نصيب المقاتلين بعد تخميسها، لكن الغنائم الحربية اليوم أصبحت في مستوى الدبابات والمدرّعات والقذائف والصواريخ، فكيف يطبق الحكم الشرعي بتوزيعها على المقاتلين الآن؟

وكذلك الحال في حكم امتلاك الإنسان للمعدن الذي يكتشفه في أرضه، كيف يمكن الآن تطبيقه في مجال آبار النفط، فهل تكون هذه الثروة الهائلة ملكًا للأشخاص الذين تكتشف في أراضيهم؟

٤. مراعاة المصلحة العامة وتقدير الحاجات والضرورات: ففي الفقه الإسلامي أكثر من عنوان يتيح للفقيه المتصدّي، أن يفتي بأولوية

حكم شرعي على آخر عند التزاحم، وأن يفتي بتجاوز بعض الأحكام بمقتضى العناوين الثانوية كالضرورة والاضطرار، والضرر والضرار، والعسر والحرج، والأهم فالأهم، والذرائع للواجبات والمحرمات، والمصالح العامة للأمة. وهي عناوين تعطي المجال للفقيه لمعالجة التزاحم بين الأحكام والأزمات الاجتماعية.

إن هذه الموارد وأمثالها تؤكد وجود مساحة من التشريع تتأثر باختلاف الأزمنة والأمكنة والبيئات، وعلى الفقيه مراعاة ذلك في استنباطه للأحكام الشرعية، ولعلّ من أهم مبررات وجود الفقيه وإيجاب الشارع المقدس طلب الفقاهة على أبناء الأمة على نحو الوجوب الكفائي، هو تصدّي الفقهاء لهذه المهمة، بتجديد البحث والنظر في الأحكام الشرعية التي يمكن تأثرها باختلاف البيئات وتطور الحياة.

نصوص وشواهد

جاء في نهج البلاغة أنه سئل الإمام علي عليه السلام عن قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «غيّروا الشيب، ولا تشبهوا باليهود»، فقال عليه السلام: «إنما قال صلى الله عليه وآله ذلك والدين قُلٌّ، فأما الآن وقد اتسع نطاقه، وضرب بجرانه، فامرؤ وما اختار»[١].

قال الشيخ محمد جواد مغنية في شرحه لهذه الكلمة:

كان النبي قد أمر الشيوخ من أصحابه أن يستروا الشيب عن العدو بالخضاب، ليظهروا أمامه في هيئة الأقوياء. فقال الإمام علي عليه السلام: ذاك حيث

[١]الشريف الرضي الموسوي. نهج البلاغة، الطبعة الأولى ١٩٦٧م، (بيروت: دار الكتاب اللبناني). قصار الحكم ١٧.

كان الإسلام ضعيفًا بقلة أتباعه، أما اليوم وقد ظهر على الدين كله، فلم يبق لهذا الحكم من موضوع، فمن شاء فليترك الخضاب، ومن شاء فليخضب.

وتسأل: ألا يتنافى هذا مع الحديث المشهور عن رسول اللَّه ﷺ: «حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة»؟

الجواب: إن الأحكام الشرعية على نوعين:

الأول منهما: يرتبط بطبيعة الإنسان وفطرته من حيث هو إنسان، وهذا النوع من الأحكام لا يتغير ولا يتبدل تمامًا كنظام الكون والأفلاك في حركتها الدائبة، وهذا النوع هو المقصود بالحديث المشهور.

والنوع الثاني: يرتبط بالحياة الاجتماعية، وهذا تتغير أحكامه تبعًا لتغير المجتمع من حالٍ إلى حالٍ، حيث يتغير موضوع الحكم وسببه الموجب[١].

وفي هذا السياق ما ورد في الوسائل عن محمد بن مسلم، وزرارة، أنهما سألا الإمام محمد الباقر عليه السلام عن أكل لحوم الحمر الأهلية؟

فقال عليه السلام: نهى رسول اللَّه ﷺ عن أكلها يوم خيبر، وإنما نهى عن أكلها في ذلك الوقت، لأنها كانت حمولة الناس، وإنما الحرام ما حرّم اللَّه في القرآن[٢].

وفي نص آخر: «إنما نهى عنها من أجل ظهورها مخافة أن يفنوها،

---

[١] محمد جواد مغنية. في ظلال نهج البلاغة، ج٤، الطبعة الأولى ١٩٧٣م، (بيروت: دار العلم للملايين)، ص٢٢٦.

[٢] محمد بن الحسن الحر العاملي، وسائل الشيعة، الطبعة الأولى١٩٩٣، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث)، حديث ٣٠١٢٠.

وليست الحمير بحرام»[١].

وقد أشار إلى هذه الحقيقة المحقق الأردبيلي توفي ٩٩٣هـ حيث قال:

«ولا يمكن القول بكلّية شيء بل تختلف الأحكام باعتبار الخصوصيات والأحوال والأزمان والأمكنة والأشخاص، وهو ظاهر، وباستخراج هذه الاختلافات والانطباق على الجزئيات المأخوذة من الشرع الشريف امتياز أهل العلم والفقهاء»[٢].

وتحدّث الإمام الخميني عن هذا الموضوع في كلمة اشتهرت عنه حيث قال: «إني على اعتقاد بالفقه الدارج بين فقهائنا، وبالاجتهاد على النهج الجواهري، وهذا أمر لا بد منه، لكن لا يعني ذلك أن الفقه الإسلامي لا يواكب حاجات العصر، بل إن لعنصري الزمان والمكان تأثيرًا في الاجتهاد، فقد يكون لواقعة حكم لكنها تتخذ حكمًا آخر على ضوء الأصول الحاكمة على المجتمع وسياسته واقتصاده»[٣].

وللفقيه المعاصر الشيخ جعفر السبحاني رسالة موجزة قيمة تحت عنوان «تأثير الزمان والمكان على استنباط الأحكام الشرعية والحكومية»[٤]، استفدنا منها في بحثنا هذا.

■■■

---

[١] المصدر نفسه. حديث ٣٠١٢٥.

[٢] أحمد بن محمد الأردبيلي. مجمع الفوائد والبرهان، ج٣، الطبعة الثانية١٤١٩هـ (قم: مؤسسة النشر الإسلامي)، ص٤٣٦.

[٣] السيد روح الله الموسوي الخميني. صحيفة النور، ج٢١، ص٩٨.

[٤] الشيخ جعفر السبحاني. البلوغ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، (قم: مؤسسة الإمام الصادق).

المرجعية الدينية والانتماء الوطني

هناك تعقيدات سياسية واجتماعية تدرك بالمعايشة والاحتكاك المباشر، وتترك آثارها وانعكاساتها على نفس الإنسان وتفكيره، أكثر من مجرّد العلم بها، والاطّلاع عليها. فالفقيه بمعايشته الفعلية للمجتمع، يكون أكثر إدراكًا وشعورًا بضروراته وحاجاته، وأفضل تقويمًا وتشخيصًا لتفاصيل واقعه وأوضاعه السياسية والاجتماعية. وقديمًا قيل يرى الحاضر ما لا يرى الغائب.

بل إن الشهيد الثاني زين الدين بن علي العاملي ٩١١ ـ ٩٦٥هـ قد ذكر من جملة أحكام المفتي وآدابه، أنه: «لا يجوز أن يفتي بما يتعلق بألفاظ الأيمان والأقارير والوصايا، ونحوها إلّا من كان من أهل بلد اللافظ، أو خبيرًا بمرادهم في العادة»[١].

---

[١] زين الدين بن علي العاملي الشهيد الثاني. منية المريد في آداب المفيد والمستفيد،، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ (قم: مكتب الإعلام الإسلامي)، ص ٩٢.

كما وأن الاعتبارات السياسية، تجعل قدرة الفقيه المواطن على إبداء الرأي، واتخاذ الموقف، تجاه أوضاع بلاده، أكبر من قدرة الفقيه المنتمي إلى وطن آخر، وأكثر مقبولية. وإن كانت الاعتبارات الشرعية هي الأصل في الأمور الدينية.

ولوجود الفقيه في المجتمع منافع وآثار إيجابية أخرى، حيث يستطيع رفع مستوى الحركة العلمية الدينية في البلاد، عن طريق التدريس في مختلف مراحله، وتربية الطلاب في المستويات المتقدمة، كالبحث الخارج، حسب اصطلاح الحوزات العلمية.

وكذلك فإن الناس أكثر استجابة وانقيادًا للفقيه المجتهد، مما يعزّز الحالة الدينية، ويكرّس وحدة المجتمع وتماسكه.

من هنا يمكن القول بأن وجود المجتهد الفقيه مطلوب في كل بيئة اجتماعية، وغير بعيد ما استنتجه الشيخ محمد مهدي شمس الدين ﵀ من وجوب وجود الفقيه على نحو الوجوب الكفائي في كل مجتمع، على ضوء الآية الكريمة: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[سورة التوبة، الآية: ١٢٢].

قال: «فقد دلّت على وجوب التفقّه لأجل تبليغ أحكام الشريعة. ودلت على أن هذا الوجوب ثابت على الأمة بنحو الكفاية يجب أن تقوم به طائفة من كل فرقة، فهو واجب على الأمة الإسلامية مع ملاحظة انقسامها إلى فرق، وينبسط هذا الوجوب على فرق الأمة بنحو الكفاية على كل فرقة، ويتحقّق الامتثال بقيام طائفة من كل فرقة بالنّفر والتفقّه.

وهل يعتبر وحدة الانتماء القومي بين الفرقة والنافرين؟ مما ذكرنا لا يبعد استفادة عدم كفاية وجود مجتهدين في شعب من الشعوب الإسلامية لسقوط وجوب التفقّه عن سائر الشعوب الإسلامية، بل يجب على كل شعب فرقة مسلم أن يكون منه نافرون متفقهون مجتهدون؛ لأن الأمر في الآية الكريمة وارد وبنحو العموم الاستغراقي ﴿.. كُلِّ فِرْقَةٍ..﴾ فلا يتحقّق الامتثال بنفر طائفة من فرقة واحدة أو أكثر إذا لم ينفر فرق من جميع الطوائف.

وعلى تقدير البناء على هذا، فهل يعتبر أيضًا أن يكون النافرون من نفس شعب/ قبيلة المكلفين، فلا يتحقّق امتثال بني تميم مثلًا إذا كان النافرون من طي، ولا يتحقق امتثال العراقيين إذا كان النافرون مصريين مثلًا، فلا يكفي انتماء الجميع للعربية أو الفارسية أو التركية، بل لا بدّ من أن يكون النافرون الطائفة من سنخ الانتماء الخاص للفرقة ولا يكفي مجرد اشتراكهم في الانتماء العام العربية أو الفارسية أو التركية ؟.. أو يكفي مجرد الانتماء العام إلى عنوان القوم الفرقة .

مقتضى قوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ﴾ هو اعتبار الانتماء الخاص، وعدم كفاية الانتماء العام، إذ إن بني تميم ـ مثلًا فرقة، فلو نفر جماعة من طي فإنه لا يصدق عليهم عرفًا أنهم منهم، والمصريون ـ مثلًا ـ فرقة، فلو نفر جماعة من العراقيين لا يصدق عليهم عرفًا أنهم منهم، وهكذا، والمسألة بحاجة إلى مزيد من التأمل»[١].

---

[١] محمد مهدي شمس الدين. الاجتهاد والتقليد،، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، (بيروت: المؤسسة الدولية للدراسات والنشر)، ص٩١-٩٢.

الفقهاء والمراجع في المنطقة

حفل تاريخ منطقة الأحساء والقطيف بوجود عدد كبير من مراجع الدين والفقهاء المجتهدين في مختلف القرون، فكانت المرجعية الدينية محليّة يتصدّى لها فقهاء من أبناء المنطقة.

وآخر مرجع ديني كان مقلَّدًا في الأحساء هو الشيخ حبيب بن صالح ابن قرين الذي توفي بتاريخ ٢١ محرم ١٣٦٣هـ. وقبله كانت مرجعية السيد ناصر بن السيد هاشم السلمان توفي سنة ١٣٥٨هـ، كما أن آخر مرجع ديني كان يقلد في القطيف هو السيد ماجد بن السيد هاشم العوامي الذي توفي بتاريخ ٧ ربيع الآخر ١٣٦٧هـ، وقبله كانت مرجعية الشيخ علي ـ أبو الحسن ـ الخنيزي توفي سنة ١٣٦٣هـ.

بل امتدت مرجعية بعض فقهاء المنطقة إلى المناطق الأخرى كالعراق وإيران والكويت والبحرين.

فالشيخ أحمد بن زين الدين الاحسائي ١١٦٦ ـ ١٢٤١هـ قلّده بعض العراقيين وكثير من الإيرانيين وعلى رأسهم ملك إيران آنذاك فتح علي شاه وأسرته ووزراؤه وكبار رجال دولته. وقد سجّل الدكتور ميرزا مهدي خان في تاريخه: أن ربع الشعب الإيراني كانوا من مقلديه والتابعين له[١].

والشيخ محمد بن علي آل عبدالجبار القطيفي توفي بعد ١٢٥٠هـ كان يقلّده كثير من أهالي العراق وأهل القطيف والأحساء وقد ارتضاه علماء

[١] السيد هاشم الشخص. أعلام هجر، ج١، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ، (قم: مؤسسة أم القرى)، ص١٧٣.

النجف للمحاكمة بينهم وبين السيد كاظم الرشتي أيام النزاع بينهم، وارتضاه السيد المذكور وناهيك بذلك فضلا[١].

أما الفقهاء المجتهدون الذين لم يتصدّوا للمرجعية فهم كثيرون في تاريخ المنطقة.

تساؤلات ومعالجات

تدور في بعض الأوساط السياسية والإعلامية تساؤلات حول ارتباط الشيعة بالمرجعيات الدينية خارج أوطانهم، وخاصة مع تسليط الأضواء على الشيعة بعد سقوط النظام العراقي. وفي داخل كل مجتمع شيعي يتنامى شعور بضرورة وجود فقهاء يتصدّون لإدارة الحالة الدينية في المجتمع، ويعزّزون ثقة الناس في أنفسهم وفي انتمائهم الديني والوطني.

ومن المناسب أن تطرح مثل هذه التساؤلات بصراحة ووضوح، وأن تناقش بشفافية وموضوعية، فمثلًا تحاول بعض الجهات أن تطرح موضوع ارتباط الشيعة بمرجعيات دينية في الخارج، وكأنه مظهر خلل في الولاء الوطني للشيعة، وهذا الطرح ناشئ من ضعف المعرفة بواقع الارتباط بالمرجعية الدينية، وقد يأتي هذا الطرح في سياق الصراع الطائفي وإرادة التشويه لصورة المواطنين الشيعة.

إن المرجعية الدينية عند الشيعة لا تتدخل في الخصوصيات السياسية

---

[١] الشيخ علي البلادي البحراني. أنوار البدرين، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ، (قم: مكتبة المرعشي النجفي)، ص٣١٧.

للمجتمعات الشيعية في أوطانهم المختلفة، إنما يرجعون إليها في قضاياهم الدينية ومسائلهم الشرعية، أما الشأن السياسي والاجتماعي فتتصدّى له القيادات المحلية من علماء ووجهاء، وسيرة المراجع تثبت أنهم في مستوى كبير من النضج والحرص على مصالح البلاد الإسلامية، لذلك يوجهون أتباعهم إلى الاندماج في أوطانهم، والتفاعل مع محيطهم، والحفاظ على الوحدة الإسلامية والوطنية.

وقد يتصدّى المرجع لدور سياسي في وطنه كإيران أو العراق حسب ما تفرضه الظروف، أو تقتضيه المصلحة هناك. أما تبنّي المواقف السياسية حول الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى فهذا ما لم يعهد من سيرة مراجع الشيعة، وتاريخهم واضح جلي.

والارتباط بمرجعيات دينية خارج الوطن ليس ظاهرة خاصة بالشيعة، فأهل السنة في بلاد عديدة يرتبطون في شؤونهم الدينية بالجامع الأزهر في مصر، وهناك في بلدان إسلامية من يأخذ بآراء المفتي وكبار العلماء في المملكة العربية السعودية، فهل يعتبر ذلك خللًا في ولاء هؤلاء لأوطانهم؟

كما أن المجتمعات المسيحية في دول العالم تقدّس البابا الذي يمثل الزعامة الدينية للمسيحيين وترتبط به كنائسهم ومؤسساتهم الدينية، ولا أحد يعتبر ذلك خللًا في الولاء الوطني!!

المرجعية المحلية والضوابط الشرعية

تلتزم المجتمعات الشيعية بالضوابط والشروط الشرعية في اختيار

المرجع الديني، ولا تقبل الإخلال بتلك الضوابط لمراعاة الاعتبارات السياسية والمادية. فالمرجع يتم اختياره بإرادة شعبية، بعيدًا عن القرارات والمواقف الحكومية، وبشكل عفوي، بناءً على شهادات ذوي الخبرة من العلماء في الحوزات العلمية ومختلف المجتمعات الشيعية.

والتفاف شيعة العراق العرب الأقحاح، بمشاعرهم القومية والوطنية المرهفة حول مرجعية السيد السيستاني، وهو من أصل إيراني، يقدم أروع شاهد على عمق الالتزام بالضوابط الشرعية في اختيار المرجعية الدينية.

كما أن مواقف المرجع السيستاني في غمرة الاضطرابات وتعقيدات الواقع العراقي الناتج عن الاحتلال الأمريكي، يكشف عن استقلالية المرجعية الدينية، ونضج آرائها، وصدق إخلاصها لمصلحة الدين والأمة، بعيدًا عن أيّ تأثيرات سياسية خارجية أو داخلية.

بالطبع فإن وجود مرجعية دينية من أبناء الوطن تتوفر على المواصفات الشرعية المطلوبة يشكل خيارًا أفضل، وهذا ما كان قائمًا في الكثير من المجتمعات الشيعية في إيران والعراق ولبنان والبحرين والأحساء والقطيف.

لكن ضعف الحالة العلمية في بعض هذه المناطق هو الذي حرمها من هذه النعمة في الأزمنة الأخيرة.

وكان للظروف السياسية التي مرّت بها هذه المناطق دور أساس في خلق هذا الواقع، ولو تبنّت الحكومات في هذه المناطق سياسة تشجيع

الحالة العلمية للمجتمعات الشيعية فيها، ورفع القيود والعوائق عن طريقها لأمكن توفر عدد من الفقهاء والمجتهدين المحليين، وبالتالي بروز مرجعيات محلية كما كان ذلك في الماضي.

كما تتحمّل المجتمعات الشيعية ذاتها قسطًا كبيرًا من المسؤولية؛ لأن عليها أن تدعم وجود الحوزات العلمية في بلادها، وأن تشجع الراغبين في طلب العلم من أبنائها، وتوفر لهم إمكانات الابتعاث لمواصلة الدراسات العليا في الحوزات العلمية المركزية.

والمؤسف أن طلاب العلوم الدينية في مجتمعاتنا لا يوجد من يدعمهم أو يتبنّاهم، بل يعتمد كل منهم على إمكاناته الذاتية، ومساعدة أسرته، وعلى المكافأة المحدودة التي يقدمها المراجع للطلاب في الحوزات الدينية.

وغالبًا ما يضطر أكثرهم للعودة إلى الوطن دون مواصلة الدراسات العليا، بسبب ضغط الظروف الاقتصادية ومتطلبات الحياة العائلية.

ومع إدراكنا لهذه الصعوبات التي تواجه طلاب العلوم الدينية، إلّا أننا نأمل أن يشحذوا هممهم، وأن يتحدّوا العوائق والعراقيل، فرضا الرب، وخدمة الدين، ومجد العلم يستحق التضحيات، وتهون أمامه الشدائد، وقد روي عن الإمام زين العابدين ﷺ قوله: «لو علم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج»[١].

فلماذا يتحمّل طالب العلم الإيراني أو الأفغاني أو غيرهما سنين الغربة

[١] محمد بن يعقوب الكليني، الكافي ج١، ١٩٨٥م، (بيروت: دار الأضواء)، ص٣٥.

الطويلة في النجف الأشرف مثلًا، والانقطاع عن أهله ووطنه، ويتحمّل أخطار الأوضاع القائمة هناك، وصعوبات الحياة، حتى يصل إلى مقام الاجتهاد والمرجعية، بينما يكتفي أكثر طلابنا بالوصول إلى مستوى محدود من العلم، ثم يسارعون للرجوع إلى بلدانهم؟

ونقول أكثر طلابنا تلافيًا للتعميم ففيهم من يتوقع منه وله المستقبل المشرق إن شاء اللّٰه.

توطين الاهتمامات الفقهية

حاجة المجتمعات لوجود فقهاء مجتهدين من أبنائها، ليس من أجل أن يجترّوا ويعيدوا بحث الموضوعات الأصولية والفقهية التي أُشبعت بحثًا، وإن كان بحثها مهمًا لجهة تنمية القدرة العلمية والاجتهادية، وهي موضوعات لا يمكن تجاوزها أو التقليل من شأنها، لكن روّادها كثيرون، والاستفادة من باحثيها في مجالها لا يستلزم خصوصية محلية.

إنما الحاجة الأهمّ للفقهاء المحليين، تكمن في تميزهم المفترض، بإدراك مشاكل مجتمعاتهم وخصوصياتها، وتقديم المعالجات العلمية المناسبة لها.

فالوضع السياسي في كل مجتمع، والقضايا الاجتماعية القائمة فيه، والتحدّيات الثقافية، والعلاقة بينه وبين أطراف محيطه، كل هذه الأبعاد تحتاج إلى بحث ومعالجة في تميزاتها وخصوصياتها، على هدى الشريعة الإسلامية.

وظاهرة العزوف عن معالجة القضايا المحلية عبر البحث العلمي

الفقهي تكشف عن ضعف شعور بالمسؤولية الاجتماعية الوطنية، أو تهيب من ارتياد بحوث غير مألوفة، أو خوف من إبداء الرأي والنظر.

ولا بدّ أن نشيد هنا ببعض النماذج من الفقهاء الذين تميّزوا ببحث مشكلات مجتمعاتهم، وقدموا لها مشاريع وطروحات بتأصيل علميّ فقهيّ، كالإمام السيد موسى الصدر، والشيخ محمد مهدي شمس الدين في لبنان، اللذان استطاعا إنقاذ مجتمعهم من حالة الانكفاء والحرمان والتهميش، وساعدا على ترتيب أوضاعه الداخلية، وتحسين علاقاته مع أطراف محيطه، وتحقيق مشاركته وإسهامه على المستوى الوطنيّ العام.

وخطاباتهما وكتاباتهما التي أسّست لهذه الحالة ورعت نموها وتطورها منشورة معروفة، وخاصة البحوث القيمة التي أنجزها الشيخ شمس الدين مثل الاجتماع السياسيّ في الإسلام ونظام الحكم والإدارة في الإسلام والعلمانية وفقه العنف المسلح في الإسلام، ومسائل حرجة في فقه المرأة وضرورات الأنظمة وخيارات الشعوب والحوار الإسلامي المسيحيّ والإسلام والغرب وفي الاجتماع المدني الإسلاميّ ومطارحات في الفكر المادي والفكر الديني . وحين أصابه المرض العضال وأحسّ بقرب الرحيل عن الدنيا سجّل وصاياه لأبناء مجتمعه عبر جهاز تسجيل، وكتبت ونشرت بعد وفاته تحت عنوان الوصايا . وهي كتابات علمية تأصيلية تعالج قضايا مثارة في الساحة بشكل عام ولها انعكاساتها على مستوى الساحة اللبنانية. إضافة إلى آرائه التي طرحها من خلال المحاضرات والمقابلات الإعلامية، فيما يخصّ الشأن السياسي والاجتماعي في لبنان، برؤية إسلامية

وتأصيل فقهيّ.

ونموذج آخر يتمثل في المرجع الشهيد السيد محمد صادق الصدر ١٣٦٢ ـ ١٤١٩هـ، الذي استطاع إحياء الحالة الدينية في العراق في ظلّ طغيان نظام صدام، وقدّم معالجات شرعية للكثير من القضايا المعاشة في الوسط العراقي، وقد تضمّنت موسوعته ما وراء الفقه بعض تلك البحوث، ونشر بعضها الآخر، وأكثرها لا يزال بحثًا شفهيًا مسجلًا.

ومن أبحاثه بحث عن الأحكام والأعراف العشائرية السائدة بين قبائل العراق، وبحث عن فئة الغجر التي تعيش في العراق. وبحوث أخرى مشابهة.

إن الساحة اللبنانية ساحة مفتوحة تتوفر فيها حرية البحث والتعبير عن الرأي، لكن لها معادلاتها وتعقيداتها الشائكة، كما أن الساحة العراقية كانت في ظلّ نظام صدام تمثل أسوأ وضع قمعيّ، ووجود نماذج شقَّت طريقها وتصدّت لمعالجة الهموم والمشاكل المحلية في الساحتين دليل على إمكان مثل هذا التوجّه ضمن ظروف أيّ بلد ومجتمع.

إنني أهيب بالكفاءات العلمية من أبناء مجتمعاتنا للتوجّه بقدراتهم البحثية لمعالجة قضايا مجتمعاتهم، وليسهموا في مسيرة البناء والتنمية لأوطانهم، فالفقيه الشيعي في بلده مواطن مسلم، عليه أن يتحمّل مسؤوليته تجاه وطنه ومجتمعه ودينه، وأن لا يسجن نفسه ضمن القبيلة المذهبية المنكفئة عن التفاعل مع تطورات العصر وقضايا الوطن.

■ ■ ■

الفصل الثاني

الخطاب الديني التحديات والأولويات

الخطاب الديني والعولمة

تعولم الخطاب الإسلامي بغير إرادة منه، ودون سابق عزم أو تخطيط، لكن تيار العولمة الجارف فرض نفسه على الجميع، فأحداث كبيرة تقع في مختلف أنحاء العالم يجد الإسلاميون أنفسهم طرفًا فيها، إما لمشاركة بقرار فردي من بعض الأطراف أو لتخطيط معاد بإقحام المسلمين والزج بهم في شتى المعارك تحقيقًا لمقولة صراع الحضارات، أو لمجرد إشاعة تنطلق لخلق إثارة إعلامية، أو لأي سبب آخر.

ويكفي أن أهم حدث هزّ العالم المعاصر في الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠٢م تفجيرات نيويورك وواشنطن، كان لونه إسلاميًا فاقعًا.

إنه حدث مفصلي في تاريخ العالم الحديث، تأسست عليه كثير من التغييرات والأحداث الدولية الحاسمة، وخاصة فيما يرتبط بواقع المسلمين، وحركة وجودهم ومستوى علاقاتهم مع العالم.

ولا يكاد يمر يوم لا تحمل فيه وكالات الأنباء والمصادر الإعلامية خبرًا

أو أكثر له ارتباط بقضايا المسلمين، ومن نوع الأخبار التي تثير الاهتمام كالتفجيرات الإرهابية الضخمة، أو مآسي الاختطاف الأليمة، أو صور القتل بالذبح والنحر المفزعة.

ومن الطبيعي أن تستدعي مثل هذه الأحداث حضورًا أو استحضارًا للخطاب الإسلامي ضمن المواقف والاتجاهات المختلفة في ساحته.

من جهة أخرى فقد أصبحت وسائل الاتصال المتطورة، وقنوات الإعلام الفضائي المتقدمة متاحة أمام الجميع، فهي سوق استثمار دولية ضخمة من صالح أربابها انخراط الجميع في معادلتها الاستهلاكية، كما أنها تلبي حاجة ملحة لكل الأطراف ذات الاستهدافات المختلفة سياسية أو دينية أو اقتصادية.

واقتحم الإسلاميون هذا العالم المتطور، فأصبحت لديهم عشرات الفضائيات الإسلامية، وآلاف المواقع على الشبكة العنكبوتية، إضافة إلى عدد كبير من الصحف والمجلات. وحضور الإسلاميين لا يقتصر على المنابر الخاصة بهم، بل لهم حضورهم وتواجدهم الذي تفرضه الأحداث من خلال مختلف المنابر والقنوات.

لكن ما يجب بحثه ومناقشته هو مستوى واتجاه العولمة في الخطاب الإسلامي، هل أنها في حدود ردّ الفعل والاستجابة لتأثيرات الأحداث، أم تتجاوز ذلك إلى مستوى تقديم الطروحات، وبلورة العناوين والشعارات؛ القابلة للتدوير والتفعيل على المستوى العالمي؟

وهل تقتصر حالة العولمة إسلاميًا على استخدام الوسائل المتطورة والانجازات التقنية الحديثة أم تتعداها إلى تجديد المضامين وتحديث الاهتمامات، وتطوير المحتوى؟

فالعولمة ليست مجرد آليات ووسائل، بل هي آفاق من الاهتمامات العالمية التي تتخطى الحواجز والخصوصيات، وهي ساحة صراع وتنافس بين الثقافات وما ينبثق عنها من أنماط سلوك وأساليب عيش..

لقد وضعت العولمة كل الأديان الروحية ومناهج القيم الأخلاقية أمام تحديات صعبة قاسية، وكأنها تريد إعادة تشكيل حياة الإنسان في أبعادها المختلفة ضمن معايير ومقاييس عالمية موحدة، تقررها الأطراف الأكثر قدرة على شؤون العالم.

فأين يقع الخطاب الإسلامي من معادلة العولمة هذه؟

إن جزءًا كبيرًا من هذا الخطاب دخل العولمة في حدود المظاهر الشكلية، باستخدام وسائلها وتقنياتها، لكن مضمون الخطاب ومحتواه لا زال قرويًا ينتمي لعصر (القرية) الصغيرة المنعزلة، وليس القرية الكونية التي تغطي الكرة الأرضية.

إنه يعبر عن هموم واهتمامات جزء من مجتمع تلك القرية الصغيرة، دون أن يرتقي إلى إدراك شيء من هموم البشرية على مستوى العالم.

والقضايا التي يعالجها هذا الخطاب تبدو تافهة أمام ما يشغل بال إنسان هذا العصر من أزمات حادّة تهدد مستقبل البيئة والإنسان بأخطار كبيرة.

إنه خطاب يتغنى بأمجاد غابرة، ليكرس بذلك واقعًا متخلفًا، وبدل أن يثير جمهوره إلى المستقبل، يشغلهم بصراعات تاريخهم الماضي، لينقسموا إلى فرقاء يقدّس بعضهم ذلك الخليفة، ويعاديه بعض آخر، مع أن عهد الخلافة قد ولى وانتهى منذ زمن طويل.

أو يُعاد إحياء الاصطفاف والتخندق على أساس الخلاف حول مقولات نظرية أنتجها عصر النزاعات الكلامية قبل قرون ولا تأثير لها على واقع الحياة.

والأفظع من ذلك إصرار هذا الخطاب على تقسيم العالم إلى ثنائية دار سلام ودار حرب، مع تجاهل كل التطورات الجغرافية والسياسية والفكرية التي يعيشها العالم.

هكذا يبدو الخطاب الإسلامي المشغول بأهل قريته الصغيرة من فئة المسلمين، بل من فئة المؤمنين بمذهبه في القرية، بل من أتباع نهجه الخاص داخل المذهب، وإن استخدم وسائل العولمة المتطورة وتقنياتها، وبرامج كثير من القنوات الفضائية الإسلامية، وتوجهات أكثر مواقع الإنترنت الدينية، تكشف عن هذه الحقيقة المرّة بجلاء.

بالتأكيد فإن هذا المستوى من الطرح والأداء للخطاب الإسلامي في عصر العولمة ومن خلال أدواتها، يقدم صورة غير مشرفة للإسلام، ويعطي المجال للتشكيك في قدرته على الثبات أمام تحدي الحضارات والثقافات الأخرى، وفي صلاحيته لتوجيه حياة الإنسان المعاصر.

إن جهودًا تأسيسية كبرى يجب أن تبذل لوضع قواعد وإرساء بنية معرفية تحتية ينطلق منها الخطاب الإسلامي المعاصر؛ لعل من أولياتها التوفر على رؤية حول واقع العالم الجديد، والقراءة الموضوعية للتغيرات التي تعيشها المجتمعات البشرية اليوم. هذا أولًا.

وثانيًا: التفكير بعقلية إنسانية منفتحة، تهتم بمصلحة الجنس البشري، وتدرك تداخل المصالح بين أبناء الأسرة الإنسانية، وتتلمس الحلول والمعالجات للتحديات التي يواجهها الجميع.

ثالثًا: تجديد النظر والاجتهاد في الفكر والفقه الإسلامي، لاستنباط الآراء والأحكام حول مستجدات القضايا، وعلى ضوء التطورات المعرفية، ذلك لأن الفكر والفقه ناتج كسب بشري، يتأثر بمستوى منتجيه وفهمهم وبتأثير البيئة التي عاشوا فيها وتفاعلوا معها.

إن النص الشرعي الثابت فوق الزمان والمكان وحدود البيئات الاجتماعية، لكن فهم النص ليس كذلك، وما خلّفه لنا أسلافنا من العلماء والفقهاء رضوان اللَّه عليهم، وجزاهم على عطائهم وجهادهم خيرا، من آراء فكرية وفقهية، يعبّر عن اجتهادهم وفهمهم، ولا يسقط عنا واجب الاجتهاد، حيث يجب على الأمة في كل عصر أن تنجب مجتهدين أكفاء يقومون بواجب النظر والاستنباط، ولو كنا ملزمين باجتهادات السابقين، أو يصح لنا الاكتفاء بها والوقوف عندها لما كان معنى لوجوب الاجتهاد على الأمة في كل عصر وجيل على نحو الوجوب الكفائي كما قرر الفقهاء.

رابعًا: التواصل مع تجارب الأمم والشعوب والانفتاح عليها للاستفادة منها والتفاعل معها، استجابة لدعوة القرآن للتعارف بين المجتمعات البشرية ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[سورة الحجرات، الآية: ١٣]، وأخذًا بوصية نبينا الكريم ﷺ في قوله: «اطلبوا العلم ولو في الصين»[١]، وقوله ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيث ما وجدها فهو أحق بها»[٢].

خامسًا: حسن العرض والتقديم لمبادئ الإسلام وتعاليمه، ذلك أن صحة المحتوى والمضمون لا تغني عن حسن أسلوب الطرح، من هوا يؤكد القرآن الكريم على الاجتهاد في اختيار أفضل الأساليب والوسائل للدعوة إلى الله؛ يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة النحل، الآية: ١٢٥].

■ ■ ■

[١] وسائل الشيعة، ج٢٧، ص٢٧، حديث ٣٣١١٩.

[٢] محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، سنن الترمذي، ج٣، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٤٧٩، حديث ٢٦٨٧.

الانتماء للعصر

وتفجرت ينابيع المعرفة أمام إنسان هذا العصر، وتدفق عليه سيل المعلومات من كل الاتجاهات وعن كل الأشياء.

أوشكت الأميّة على الانقراض، فبعد أن كان القادرون على القراءة والكتابة في سالف الزمان عددًا قليلًا من الناس، يعدون على الأصابع في كل مجتمع من المجتمعات، أصبحت الأميّة نسبة ضئيلة تتقلص كل عام على مستوى العالم.

وحتى من يفقدون السمع أو البصر أتيحت لهم فرص التعلم، وتوفرت لهم وسائل الخلاص من الأميّة.

وانفتحت آفاق علوم الأرض والسماء، أمام أبناء البشر، من مختلف الأعراق، والألوان، والأصقاع، والشرائح والطبقات، ولم يعد العلم حكرًا على نخبة من أبناء السلاطين والأثرياء الارستقراطيين.

وأصبح العالم بأحداثه وتطوراته حاضرًا أمام الإنسان، وهو مضجع على سرير نومه، أو متكئ على أريكته، يشاهد كل خبر أو حدث هام لحظة وقوعه، بالصورة الملونة، والصوت الواضح بأي لغة يتقنها.

أما الحاسب الآلي، والشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، فهي العصا السحرية المتاحة لكل إنسان في هذا العصر، ليستحضر بها أي معلومة يريدها، وأي فكرة يبحث عنها، وبها يفتح كل أبواب خزائن العلم والمعرفة، في مختلف المجالات والتخصصات، وقد بلغ عدد مستخدمي الإنترنت في العالم عام ٢٠١١م(٢) مليار مستخدم.

قبل سنوات قرأت في أحد التقارير: أن العالم أنتج من المعلومات خلال الثلاثين سنة الماضية، ما يزيد على الذي تم إنتاجه في الخمسة آلاف سنة السابقة.

ونسخة واحدة من عدد الأحد لصحيفة (نيويورك تايمز) تحتوى على المعلومات التي يمكن أن يكتبها أوربي في القرن السابع عشر طيلة حياته.

وكل يوم هناك نحو عشرين مليون كلمة، تنتج بواسطة الوسائل الإعلامية والمعلوماتية المختلفة.

والقارئ الذي يستطيع أن يقرأ ألف كلمة في الدقيقة، سيستغرق شهرًا ونصف الشهر لقراءة إنتاج يوم واحد فقط. وفي نهاية هذه المدة سيتكدس لديه ما يحتاج إلى خمس سنوات ونصف من القراءة.[١]

---

[١] المجلة: مجلة أسبوعية تصدر من لندن، العدد ٩٢٨ بتاريخ ٢٩/ ١١/ ١٩٩٧م.

وقبل سنوات أشارت أرقام اليونسكو واتحاد الناشرين الدولي إلى أن العالم يصدر فيه سنويًا حوالي مليون وربع المليون عنوان من الكتب.

وحوالي نصف المليون دورية مطبوعة

وحوالي خمسة ملايين تقرير علمي وفني.

وحوالي ربع المليون رسالة ماجستير ودكتوراة.

وربع المليون كتاب ودورية الكترونية.[١]

في هذا العصر الذي تزدحم أمام إنسانه الأفكار، وتتراكم المعارف، وتتوالى المعلومات، كيف يمكن للخطاب الديني أن يشق طريقه إلى عقل هذا الإنسان المعاصر؟

وكيف يرقى إلى مستوى المنافسة والتحدي؟

إن أول شرط تأهيلي لمقبولية الخطاب الديني، يكمن في انتمائه لهذا العصر الحاضر، بأن يستخدم لغته، ويعيش قضاياه واهتماماته، ويستفيد من وسائله وتقنياته.

إن تقدم العلم، وتطور المعرفة، ويسر تداول المعلومات وانتشارها، ليس مشكلة، ولا عامل تحد سلبي أمام الخطاب الإسلامي، بل هو في الواقع مكسب عظيم للإنسانية، وداعم لحقائق الدين، المنسجمة مع الفطرة، المتوافقة مع سنن اللّه تعالى في الطبيعة والحياة.

[١] وجهات نظر: مجلة تصدر عن الشركة المصرية للنشر العربي والدولي، القاهرة العدد ٣٧ فبراير ٢٠٠٢م.

فالجهل هو العائق الأكبر أمام اهتداء الإنسان للدين، وهو سبب انحداره إلى مهاوي الكفر والشرك والضلال، لذلك يستعيذ المؤمن باللّه تعالى من الجهل: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ﴾[سورة البقرة، الآية: ٦٧].

ويحذر اللّه تعالى نبيه من مستوى التفكير الهابط للجهلاء يقول تعالى: ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنْ الْجَاهِلِينَ﴾[سورة الأنعام، الآية: ٣٥].

ويقول تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾[سورة الأعراف، الآية: ١٩٩].

وكما يقول الإمام علي عليه السلام: «الجهل أصل كل شر»[١].

ويحيل الإمام علي سبب عداء الناس لكثير من الحقائق والمواقف إلى الجهل يقول عليه السلام: «الناس أعداء ما جهلوا».[٢]

أما العلم فهو طريق الإيمان والهدى واكتشاف الحق، يقول تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾[سورة سبأ، الآية: ٦].

وروي عنه ﷺ أنه قال: «العلم حياة الإسلام وعماد الإيمان».[٣]

تأسيسًا على هذه الحقيقة فإن التقدم العلمي يخدم المبادئ الدينية، ويجعل الناس أكثر تهيأً لقبولها والتفاعل معها، كما أن تطور وسائل المعرفة يتيح

---

[١] غرر الحكم ودرر الكلم.
[٢] نهج البلاغة، حكمة١٧٢.
[٣] كنز العمال، حديث ٢٨٩٤٤.

أفضل الفرص لعرض قيم الإسلام، وإيصال صوته إلى المسامع والعقول.

لكن المشكلة تكمن في استيعاب دعاة الإسلام لحقائق العصر، وقدرتهم على تنزيل مفاهيمه، وإسقاط قيمه، على واقع الحياة الحاضر. ذلك أن شريحة واسعة منهم تعيش بأبدانها في هذا الزمن، لكنها تنتمي بعقولها ولغتها وتصوراتها إلى أزمنة غابرة، تنظّر لمشاكل تلك العصور، وتنشغل بصراعات الماضي الفكرية والسياسية، وتتقمّص اهتمامات الأسلاف، وتفقد القدرة على الإبداع الفكري،وجرأة الاجتهاد الفقهي.

إن قسمًا من الخطابات الدينية تثير السخرية والامتعاض، لمخالفتها روح العصر، وتجاهلها شرائط الزمان والمكان، وعدم تناسبها مع أوضاع المجتمعات.

في مقالة له بعنوان (أزمة خطبة الجمعة) كتب الدكتور خالص جلبي نقدًا لاذعًا لهذا النوع من الخطابات، مستشهدًا ببعض نماذجه، ومما جاء في المقال الفقرات التالية:

منذ أيام يزيد بن معاوية يصعد كل يوم جمعة نفس الخطيب، ويكرر نفس الديباجة، ويعيد نفس الدعاء للسلطان بالحفظ والصون. ويتلقى الموجة جمهور أخرس أتقن الصمت، مختوم بختم على الفم أكبر من ختم الحبل السري على البطن، ليسمع حديث واعظ في قضايا لا تستحق الاجتماع، فلا يزيد الحديث فيها عن فواكه الجنة، وعن الآخرة، وعن فرعون ذي الأوتاد.

وروي لي من بلد عربي، أن خطب الجمعة تكتب بيد موظف وصي على عقول الناس، وترسل بالفاكس إلى خطباء كل المساجد، كي يقرؤوا خطبة واحدة موحدة مؤممة، فهذا أريح لوجع الدماغ.

وفي مدينة مونتريال في كندا، حضرت خطبة وصلاة الجمعة، فظننت نفسي في مسجد الأتراك في حي قاسيون في دمشق، فلم يزد الحديث عن مواعظ عثمانية، وأدعية عدوانية، بأن يدمر اللّه الكافرين جميعًا وعائلاتهم. في الوقت الذي منح فيه الكنديون المسلمين الجنسية، ومعها الرزق الوفير، والدراسة المجانية، والأمان من جلد المخابرات، وتقارير الشرطة السرية.

وفي مكان ما حضرت خطبة في مسجد، فحوّل الخطيب الخطبة إلى مناسبة فقهية، في الاستنجاء والاستبراء بالحجارة، مع أن الناس لم تعد تستخدم الحجارة في دورات المياه منذ أيام الاستعمار الفرنسي.

وفي بلدتي التي عشت فيها طفولتي، كان الإمام يخطب من كتاب (ابن أبي نباتة) من أيام السلطان قلاوون. وهناك ٥٢ خطبة على مدار السنة، وحسب المواسم، وكنا صيامًا فتحدث عن الحج، ثم انتبه إلى أنه بدل المواسم، فبدأ يقلب على عجل عن الخطبة المناسبة، بعد أن ضل طريقه إليها.

وفي بلد عربي كان الخطيب يدعو بحرقة على طوائف لا نهاية لها بالتدمير الكامل، وتيتيم الأطفال، وترميل النساء، وأن يريه عجائب خلق اللّه فيهم.

وكان أكثر حماسة عند الدعاء على العلمانيين أن يُقتلوا عددًا، ويُهلكوا بددا، ولا يُبق منهم أحدا. كرر ذلك ثلاث مرات وصوته مختنق بالبكاء[١].

وإذا كان هؤلاء الخطباء يعانون من القصور في وعي عصرهم، وفهم رسالتهم، فإن قسمًا آخر من الخطباء يمارسون التقصير، فهم لا يصرفون جهدًا كافيًا لإعداد خطاباتهم والتحضير لها. رغم توفر الوسائل والأدوات، فمعاجم الفهرسة على الكمبيوتر، ومواقع البحث على الإنترنت، تجلب أي معلومة أو مصدر يحتاجه الخطيب لإعداد ما يريد بحثه.

كما أن وسائل الإعلام المحليّة والأجنبية تتيح الإطلاع على مختلف القضايا والمشاكل المعاشة في مجتمع اليوم.

وفي مجتمعنا عدد وافر من الأخصائيين والمتخصصين يمكن استشارتهم والاستفادة من أرائهم، لمعالجة القضايا المرتبطة بتخصصاتهم.

إن ضعف الإعداد والتحضير للخطاب، يجعل المعالجة فيه سطحية بسيطة، كما أن هندسة الموضوع ومنهجية الطرح، تصبح مرتبكة أو غير متقنة.

بينما يكون الخطيب المجتهد في الإعداد والتحضير مهيمنًا على موضوع بحثه، مُنسِّقًا لنقاطه وأفكاره، مشبعًا له بالأدلة والشواهد المؤثرة، مما يجعله أكثر فائدة وأقدر على الإقناع والتأثير.

■■■

[١] الشرق الأوسط: جريدة يومية تصدر من لندن ٢٦/ ٦/ ٢٠٠٢م.

أنسنة الخطاب الديني

يحتل الخطاب الديني في مجتمعاتنا الإسلامية موقعًا خطيرًا من التأثير لا يضاهيه فيها أي خطاب آخر، فهو الذي يصوغ العقل الجمعي، ويوجه السلوك العام. نظرًا لارتباط مجتمعاتنا بالدين، ولما يمثله هذا الخطاب في نظرها من تعبير عن أوامر الدين وأحكامه.

من ناحية أخرى فإن الخطاب الديني أصبح مرآة لصورتنا أمام الأمم والحضارات الأخرى، فمن خلاله تتشكل الانطباعات والتقويمات عن أمتنا وديننا وثقافتنا.

وحين نجد ظاهرة عجز في العقل الجمعي للأمة، وظاهرة خلل في السلوك العام لأبنائها، وحين تهتز صورة الأمة على شاشة الرأي العام العالمي، فذلك يجب أن يدعونا إلى مراجعة خطابنا الديني، فهو إما أن يكون مسؤولًا عن حصول هذا الواقع السيئ، أو مهادنًا له مكرسًا لوجوده.

إن علينا أن نفرق بين الخطاب الديني والنص الديني، فالنص الديني

هو كل ما ثبت وروده عن اللَّه سبحانه وتعالى وعن رسوله محمد ﷺ، أي الكتاب والسنة. فالقرآن الكريم قطعي الصدور بكل ما بين دفتي المصحف الشريف منزه عن أي زيادة ونقصان، أما السنة الشريفة فهي ما ثبتت صحة وروده بالضوابط العلمية المقررة عند فقهاء الأمة.

وهذا النص الديني (الكتاب والسنة) فوق المحاسبة والاتهام، إنه يحكي عن اللَّه تعالى، وعن وحيه الأمين، وعن المصدر المعصوم، ولا يمكن أن يتسرب لقلب مسلم ذرة من الشك في صدقه وقداسته.

أما الخطاب الديني فهو ما يستنبطه ويفهمه الفقيه والعالم والمفكر من النص الديني، أو من مصادر الاجتهاد والاستنباط المعتمدة.

ويتمثل الخطاب الديني في فتاوى الفقهاء، وكتابات العلماء، وأحاديث الخطباء، وآراء ومواقف القيادات والجهات الدينية.

وهنا لا قداسة ولا عصمة، فالاجتهاد قد يصيب وقد يخطئ، والمجتهد يعبّر عن مقدار فهمه وإدراكه، كما وقد يتأثر بمختلف العوامل النفسية والاجتماعية التي تنعكس على آرائه وتصوراته.

كما أن قسمًا كبيرًا من الخطاب الديني المعاصر لا يصدر عن فقهاء مجتهدين، بل عن وعاظ وخطباء محترفين، وجهات تمتهن التصدي للشأن الديني، بغض النظر عن الكفاءة والنزاهة.

وبذلك فالخطاب الديني قابل للنقد والتقويم، لأنه كسب بشري، ونتاج إنساني، أما النص الديني فهو وحي إلهي أو تعبير عنه.

صحيح أن الخطاب الديني يستند إلى النص الديني ويحتج به، لكن ذلك يتم عبر فهم وتفسير للنص، هذا الفهم والتفسير قابل للأخذ والرد، فهناك تفسيرات لبعض النصوص الدينية تفتقد الموضوعية والدقة، أو تجتزء النصوص من سياقاتها، وتقرؤها خارج منظومة قيم الرسالة ومقاصد الشريعة.

كما أن بعض ما يستند إليه من نصوص السنة يحتاج إلى التأكد والاطمئنان من ثبوت صدوره وصحة وروده.

ومن أبرز مظاهر العجز والخلل في واقع مجتمعاتنا تدنيّ مكانة الإنسان، وانخفاض مستوى الاهتمام بقيمته وحقوقه، وحماية كرامته، حتى أصبحت أمتنا تحتل الصدارة في تقارير انتهاكات حقوق الإنسان على مستوى العالم، ليس من جهة السلطات السياسية فقط، وإنما على الصعيد الاجتماعي العام أيضًا. فهناك إرهاب فكري يصادر حرية التعبير عن الرأي، وتمييز ضد المرأة يحولها إلى إنسان من درجة ثانية، وقسوة على الأبناء تسحق شخصياتهم، ونظرة دونية إلى الآخر المختلف ضمن أي دائرة من دوائر الاختلاف.

ومن هذه الأرضية انبثقت توجهات إرهابية متوحشة، تمارس العنف، وإزهاق النفوس، وقطع الرؤوس، واختطاف الأبرياء، واستهداف المدنيين، كل ذلك باسم الدين، وتحت شعار الإسلام، وبعنوان الدفاع عن مقدسات الأمة.

هذه الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان في المجتمعات الإسلامية، وهذا التجاهل والتنكر لكرامة الإنسان وقيمته، حينما يحدث كل ذلك

بمقولات وتبريرات تنسب إلى الدين، فمن الطبيعي أن يكون الخطاب الديني في موضع المساءلة والاتهام.

إنه لا يساورنا شك في نزاهة الدين وبراءته من هذا الذي يحدث باسمه وينسب إليه، فالقراءة الصحيحة للنصوص الدينية تكشف عن اهتمام عميق بإنسانية الإنسان، واحترام شديد لكرامته وحقوقه، لا مثيل له في أي مبدأ أو حضارة.

وبالتالي فإنه يمكننا محاكمة الخطاب الإسلامي المعاصر وتقويمه على ضوء النصوص الدينية، لمعرفة مدى الخلل والقصور الذي يعانيه في مجال الاهتمام بإنسانية الإنسان واحترام كرامته وحقوقه.

صحيح أن استشهادنا بالنصوص الدينية سيكون هو الآخر تعبيرًا عن اجتهاد في فهمها وتفسيرها، لكنه اجتهاد راجح بتوافقه مع أصول الرسالات الإلهية ومقاصد التشريع، وبانسجامه مع القيم الإنسانية ومنطق العقل.

إن تطوير خطابنا الديني إنسانيًا ليس مطلبًا كماليًا، وليس قضية هامشية، بل هو ضرورة ملحة تقع في الصميم من قضايا الأمة واحتياجاتها.

إنه سبيل إلى تحقيق مهام أساسية تأخرت الأمة كثيرًا عن إنجازها وتحقيقها، وأبرزها ما يلي:

أولًا: إنجاز تقدم على مستوى التنمية الإنسانية في مجتمعاتنا، حيث يعيش الإنسان واقعًا متخلفًا يفتقد فيه مقومات بناء الحياة

الفاضلة، والتمتع بحقوقه الإنسانية المشروعة.

ثانيًا: النجاح في صنع العلاقة السليمة مع الآخر داخل الأمة والوطن، وفي الخارج مع سائر الأمم والحضارات، حيث تعاني مجتمعاتنا من اضطراب العلاقة بين فئاتها وشرائحها، وحيث أقحمت الأمة في معركة صدام مع الحضارات والشعوب الأخرى بسبب توجهات التطرف والإرهاب.

ثالثًا: الإسهام في خدمة القضايا الإنسانية على الصعيد العالمي، لتكون الأمة بمستوى ما تتبناه من قيم الإسلام ومفاهيمه وشعاراته الرسالية العظيمة.

إن القرآن يقدم الإسلام مشروعًا للإنسانية جمعاء ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[سورة سبأ، الآية: ٢٨] ورسالة ورحمة وسلام لكل شعوب العالم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧] وأن أمة الإسلام يجب أن تكون رائدة الخير في المجتمع البشري ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١١٠].

فلا بد من خطاب يؤهل الأمة لهذا الدور، ويقدم الإسلام للعالم على هذا المستوى.

■ ■ ■

صنع المشاكل أم تقديم الحلول

تنتظر المجتمعات الإسلامية من الخطاب الديني، أن يقدم حلولًا ومعالجات للمشاكل والتحديات التي تواجهها.

وهي مشاكل كبيرة وتحديات خطيرة، تبدأ من صعوبات التربية في عصر العولمة، حيث تدنّت إمكانات تأثير الأسرة على الأبناء، لصالح تأثيرات وسائل الاتصال المتطورة، والإعلام الفضائي المفتوح.

مرورًا بمشاكل التفكك الأسري، والأزمات الاقتصادية، وتخلف التنمية، وانتهاءً بهيمنة الاستبداد السياسي، وغياب المشاركة الشعبية، وما يؤدي إليه من فقدان الاستقرار والأمن، ونشوب الصراعات والنزاعات.

ثم ما تواجهه المجتمعات الإسلامية من عدوان صهيوني جاثم على قلب الأمة، منذ أكثر من نصف قرن من الزمن، وكذلك محاولات الهيمنة والنفوذ من قبل مختلف قوى الاستكبار العالمي.

هذه التحديات والمشاكل تستوجب نهوض الأمة، وتجنيد قواها وطاقاتها، وتفعيل إمكاناتها وقدراتها، لتجاوز واقع التخلف، والالتحاق بركب الأمم المتقدمة، التي تنعم بالديمقراطية والاستقرار السياسي، وتتنافس في ميادين العلم والمعرفة، والتطور والتقدم الاقتصادي.

وإنهاض الأمة وتعبئتها لمواجهة المشاكل والتحديات، هي المهمة الأساس للخطاب الديني، لكن المؤسف أن بعض الخطاب الديني ينتج للأمة مشاكل إضافية، ويشغلها عن مواجهة تحديات واقعها المعاصر، بنبش وإثارة مشاكل تاريخية قديمة، أكل عليها الدهر وشرب.

لقد حصلت في تاريخنا الماضي أحداث وصراعات سياسية واجتماعية كثيرة، ودارت خلافات ونزاعات كلامية وفقهية صاخبة، لم تكن بعيدة عن التأثير السياسي، ويحق لنا أن ندرس التاريخ، وأن نقرأ أحداثه ورجالاته، ونتعرف جذور التوجهات والتيارات السياسية والفكرية التي أسست للتنوع المذهبي القائم في الأمة.

لكن ذلك لا يعني البقاء في كهوف التاريخ، والتخندق في جبهات صراعاته، وإعادة تمثيل معاركه وحروبه، على حساب مصالح الحاضر، وهموم الواقع.

إن أتباع كل مذهب ومدرسة يجدون أنفسهم معنيين بتربية أبنائهم وفق انتمائهم الديني المذهبي، ولهم الحق في التعبير عن آرائهم وتوجهاتهم، وإنتاج ثقافتهم المذهبية الخاصة.

كما أن الحوار والنقاش بين وجهات النظر المختلفة أمر مشروع ومطلوب، لإثراء المعرفة، وإنضاج الرأي، وتمحيص الحقائق.

لكن تربية الأبناء على المذهب لا تعني زرع الأحقاد والضغائن في نفوسهم على أبناء المذاهب الأخرى، ولا تحريضهم على الكراهية للآخرين، كما تصنع بعض مناهج التعليم الديني التي تقحم الجيل الناشئ في متاهات الخلافات المذهبية، وتخلق في نفوسهم مشاعر سلبية تجاه بعضهم بعضًا، مما يضر الوحدة الوطنية، والسلم المجتمعي.

كما أن جزءًا كبيرًا من خطابات المساجد والحسينيات تأخذ منحى تعبئة جمهور المذهب ضد جمهور المذهب الآخر.

وتخصصت بعض القنوات الفضائية والمواقع الالكترونية في إثارة الحوار المذهبي، باتجاه الشحن الطائفي، وإذكاء الصراع والنزاع، لصب الزيت على نيران الفتنة المتقدة في أكثر من موقع.

حقًّا لقد أصبح الخطاب الديني في هذا الاتجاه مصدر مشاكل إضافية للأمة، بدل أن يقدم الحلول لمشاكلها القائمة.

إن حشودًا ضخمة من أبناء الأمة تجتمع في المناسبات الدينية لتصغي لخطابات الخطباء والدعاة، التي تبث أيضًا عبر القنوات الفضائية، مما يوفر أفضل الفرص لتوجيه الناس نحو تعزيز القيم الأخلاقية في حياتهم، ولإرشادهم للتغلب على المشاكل التي يواجهونها في مجالات التربية والعلاقات الأسرية، وصعوبات المعيشة، ولتحفيزهم نحو المعرفة والإنتاج

وبناء المستقبل الأفضل.

لكن المؤسف أن معظم الخطابات التي تُلقى على تلك الحشود المهيأة نفسيًا للتفاعل والتأثر، تتجه نحو قضايا الخلاف المذهبي والتعبئة الطائفية، مما يخلق لدى الجمهور اهتمامًا زائفًا، بأولوية المعارك المذهبية على سائر التحديات، ويصنع في نفوسهم إشباعًا كاذبًا لعواطفهم الدينية، بأن الولاء للدين والإخلاص للعقيدة يتجسد في البراء من الآخر المذهبي، وبغضه وكراهته، ولعن رموزه والشخصيات التي يقدسها، باعتبارهم مشركين مبتدعة روافض، أو نواصب غاصبين معادين لأهل البيت.

هذه التعبئة الطائفية تشغل جمهور مختلف المذاهب، عما يعانونه من استبداد سياسي، وفساد اجتماعي، وأزمات معيشية.

إن ظواهر سلوكية خطيرة تنتشر في هذه المجتمعات، وتهدد أمنها الأخلاقي والاجتماعي، كانتشار المخدرات، وعصابات الإجرام، وممارسة العنف، والتفكك الأسري، وتدني مستوى التعليم، وارتفاع نسبة البطالة، والمشاكل الأخلاقية.... بينما يعيش ذلك الخطاب الديني في وادٍ آخر، وكأنه غير معني بما ينخر في جذور المجتمع من أمراض وأوبئة فتّاكة.

والأخطر من ذلك ما تؤول إليه هذه التعبئة الطائفية من نشوب الفتن، وفقدان الاستقرار والأمن، كما حصل في أكثر من بلد كباكستان والعراق.

فهل يدرك هؤلاء المنتجون لهذا الخطاب مآلات وآثار خطابهم؟

إن بعضهم ينطلق من سوء فهم وقصر نظر، فهم يحسبون أنهم

يحسنون صنعًا.

وبعض الخطباء لا بضاعة لهم غير هذه الحكايات التي حفظوها وألفوا طرحها، ولا يجدون ولا يجيدون غيرها.

والبعض الآخر تدفعه الأغراض والمصالح، فيدغدغ مشاعر الجمهور بهذه الطروحات، لكسب الشعبية والنفوذ، وتحقيق المآرب الشخصية.

وهناك من ينطلق في خطابه الطائفي من أجندة سياسية، لتحصيل موقع سياسي، أو خدمة حزب أو فئة، أو لكونه مدفوعًا من جهة سياسية في الداخل أو من الخارج، لها مصلحة في إثارة الخلاف وإشعال الفتنة.

ومع كل ما نشعر به من القلق لارتفاع صوت الخطاب الطائفي، إلا أننا يجب أن نراهن على إثارة وعي أبناء الأمة، فقد عاش الأوربيون ما تعيشه أمتنا الآن، من خلافات ونزاعات، طائفية وعرقية وسياسية، لكن حركة الوعي والتنوير التي قادها المفكرون والمثقفون والمصلحون الدينيون في مجتمعاتهم، قد أثمرت بعد كفاح مرير، وتضحيات كبيرة، فتجاوزت شعوبهم حالة الاقتتال والاحتراب، وأسسوا دولتهم الحديثة على أساس مفهوم المواطنة والمشاركة، وهم الآن يصنعون اتحادهم الأوربي الكبير الذي يضم سبعًا وعشرين دولة، تتنوع انتماءات شعوبها القومية والدينية، حيث يبلغ عدد اللغات الرسمية في الاتحاد الأوربي ثلاثًا وعشرين لغة، كما تتعدد مذاهبهم المسيحية من كاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت، إضافة إلى الجاليات المختلفة في انتماءاتها العرقية والقومية والدينية.

إن على القيادات المخلصة في الأمة أن تخوض معركة الوعي، وتقاوم التوجهات الطائفية، متسلحة بالثقة والأمل، وأن تطور خطابها التوعوي، وتكثف الجهود في نشره وبثه، لتتجه مسيرة الأمة نحو التنمية والبناء، وتتجاوز واقع الاستبداد والجمود.

ولن يكون الطريق مفروشًا بالورود أمام خطاب الوعي والوحدة، لأن القوى المستفيدة من واقع التخلف والاختلاف، ستفتح النار من كل اتجاه وصوب، لمحاصرة خطاب الإصلاح والوعي، فلا يمكن تجنّب المعركة، فذلك هو قدر المصلحين في كل عصر ومجتمع.

■ ■ ■

أولويات الطرح في الخطاب الديني

هل الخطاب الإسلامي ثابت موحد في مختلف الظروف والمجتمعات؟

أم أن تغير الزمان والمكان ينعكس أثرهما على هذا الخطاب؟

لاشك أن القيم والمبادئ الإسلامية في جوهرها تمتلك صفة الثبات والدوام، لكن الخطاب الإسلامي يعني منهجية وأسلوب طرح تلك القيم وعرضها على الناس.

ولتفاوت مستوى الناس، واختلاف الظروف التي يعيشونها، لابد أن يتغيّر الخطاب ويتنوع، من حيث أولويات التركيز والمعالجة، وأسلوب الطرح والتناول.

فالتخاطب مع الجمهور يختلف عنه مع النخبة العلمية، والحديث وسط تجمع ديني ملتزم، يختلف عنه ضمن وسط غير ملتزم دينيًا.و أجواء الحرب والقتال تفرض لغة معينة للتعبئة والتحريض، بينما تقتضي الظروف

الطبيعية لغة أخرى.

ولكل مجتمع مشاكله النابعة من طبيعة أوضاعه وواقعة، كما لكل عصر قضاياه الناتجة من مستوى تطور الحياة فيه. ولا يصح أن يتجاهل الخطاب الديني تلك المشاكل والقضايا، أو أن يعالج مشكلة لا وجود لها في ذلك العصر أو المجتمع.

صحيح أن هناك قدرا مشتركًا من القضايا والحاجات الفكرية والسلوكية بين المجتمعات، لكن هناك تمايزًا أيضًا، يفرضه اختلاف الظروف والأوضاع. وحتى في القضايا المشتركة التي يحتاج كل مجتمع في كل عصر لمعالجتها، كالمسألة العقدية، فإن منهجية الطرح وأسلوبه قد تختلف من عصر إلى آخر، ومن مجتمع إلى سواه.

وفي حديث القرآن الكريم عن خطاب الأنبياء والرسل لأممهم وأقوامهم خير شاهد ودليل، فهم جميعًا يدعون إلى توحيد اللَّه تعالى وعبادته، لكن نقطة التركيز، ومحورية الطرح، قد تختلف من نبي لآخر، حسب اختلاف أوضاع الشعوب والمجتمعات.

فنبي اللَّه إبراهيم عليه السلام يركز في خطابه لقومه على وثنيتهم وعبادتهم للأصنام، حسبما تكرر ذلك في موارد عديدة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[سورة الشعراء، الآيات: ٦٩-٧٤].

أما نبي اللَّه موسى ﷺ فقد تصدى من بداية دعوته، وفقًا لما يسجله القرآن الكريم في أكثر من مشهد، لمواجهة استبداد فرعون وطغيانه. كقوله تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[سورة النازعات، الآيات: ١٥-١٧].

ورغم وجود الأصنام والأوثان في عصر نبي اللَّه موسى ﷺ كما يشير إلى ذلك قوله تعالى ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[سورة الأعراف، الآية: ١٣٨] إلا أن اهتمام الدعوة كان منصبًا على مواجهة فرعون واستبداده.

بينما نجد في رسالة نبي اللَّه لوط ﷺ اهتمامًا أساسيا بمقاومة الشذوذ الجنسي، والفساد الأخلاقي، باعتباره انحرافًا سائدًا في المجتمع آنذاك. يقول تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[سورة الأعراف، الآيتان: ٨٠-٨١].

وفي مواجهة الفساد والظلم الاقتصادي الشائع لدى قوم مدين ركزت دعوة نبي اللَّه شعيب ﷺ على العدالة الاقتصادية ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّه مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾[سورة الأعراف، الآية: ٨٥].

إن هذا التنوع في محاور التركيز والاهتمام في دعوات الأنبياء ﷺ لا

تفسير له إلا اختلاف الظروف الاجتماعية التي انبثقت رسالاتهم في محيطها، واستوجبت أن يتصدى كل نبي للقضية الأهم، والمشكلة الأبرز في عصره ومجتمعه.

بل قد يتنوع الخطاب من قبل النبي الواحد عند اختلاف الظروف التي يعاصرها، فنبي اللّه موسى عليه السلام كان تركيز دعوته في بدايتها على مواجهة استبداد فرعون وطغيانه، لكنه بعد هلاك فرعون، وخلاص بني إسرائيل من ظلمه وسطوته، اتجه خطابه الرسالي إلى معالجة الثغرات ونقاط الضعف، في بنية المجتمع الإسرائيلي.

ونجد ذلك أيضا في خطاب الرسالة الإسلامية، حيث تنقسم سور القرآن وآياته إلى قسمين: مكي ومدني. والملحوظ أن هناك تفاوتًا وتمايزًا بين ما هو مكي وما هو مدني. لجهة نوع القضايا المطروحة، وأسلوب الخطاب.

وقد اجتهد العلماء في بحث جهات التمايز، بين المكي والمدني، ووضع ضوابط وقواعد تنتظمها. يقول الزركشي: «إن كل سورة فيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وليس فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ فهي مكية.وفي الحج اختلاف. وكل سورة فيها ﴿كَلَّا﴾ فهي مكية. وكل سورة أولها حروف المعجم فهي مكية. إلا البقرة وآل عمران. وفي الرعد خلاف. وكل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة. وكل سورة فيها ذكر المنافقين فمدنية سوى العنكبوت.

وقال هشام ـ الكلبي ـ عن أبيه: كل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض

فهي مدنية. وكل ما كان فيه ذكر القرون الماضية فهي مكية»[١].

ويؤكد الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني على مراعاة النص القرآني للبيئة البشرية التي كان يتنزل فيها، يقول: «ونلاحظ أن أسلوب الآيات القرآنية في بيئة العهد المدني قد اختلف عن أسلوبها في بيئة العهد المكي، فقد صارت البيانات الدينية تجمع في آيات طوال، وسور طوال، وصار فيها لجوء إلى التفصيل لما كان في العهد المكي مجملا، والى بيان الجزئيات التي كان يطوى الكثير منها في أسلوب العهد المكي. وصار أسلوب العهد المدني يراعي طرائق تفكير البيئة المدنية التي فيها ثلاث قبائل من أهل الكتاب اليهود... وباستطاعة متدبر كتاب اللّٰه تمشيًا مع مراحل التنزيل أن يكتشف من صور التلاؤم بين النص القرآني والبيئة التي نزل فيها، البشرية، والزمانية، والمكانية، والحالات النفسية، والفكرية، الفردية والاجتماعية، ما لا يمكن استيفاؤه بنظرات عامات، وعناصر محددات مفصلات»[٢].

تأسيسًا على ما سبق فإن على الدعاة الإسلاميين أن يأخذوا أوضاع عصرهم بعين الاعتبار، فيلاحقون تطوراته العلمية، وتياراته الفكرية، ومشاكله الاجتماعية، ليكونوا أقدر على تقديم التوجيه المناسب لأبناء هذا العصر، والمؤثر فيهم.

من ناحية أخرى فإنه على الرغم من حالة التواصل والانفتاح العالمي

---

[١] محمد بن عبد اللّٰه الزركشي. البرهان في علوم القرآن، ج١، طبعة ١٩٨٨م، (بيروت: دار الجيل)، ص١٨٨.

[٢] عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني. قواعد التدبر الأمثل، الطبعة الثانية ١٩٨٩م، (دمشق: دار القلم)، ص٥٦-٥٧.

بين المجتمعات البشرية، إلاّ أنه قد تكون لبعض البيئات والمجتمعات بعض الخصوصيات المحلّية، في قضاياها، وعاداتها، وفي مشاكلها، وتطلعاتها، فتحتاج إلى خطاب يلامس واقعها بشكل مباشر، ويقدم المعالجات والبرامج لما تعيشه من الآم وآمال.

ومما تعانيه بعض مجتمعاتنا أنه لا يتوفر لها دعاة مفكرون معايشون لأوضاعها، قادرون على تشخيص حاجاتها الفكرية والثقافية، لينتجوا لها الخطاب والتوجيه المناسب، الذي يمكّن تلك المجتمعات من مواجهة التحديات القائمة أمامها، وشق طريق التقدم والنجاح.

صحيح أن وجود التوجيه الديني العام، بما يشتمل عليه من مواعظ وتذكير، وتعليم للأحكام الفقهية، أمر مفيد. لكن ذلك لا يملأ فراغ الحاجة إلى طروحات فكرية تجيب على التحديات التي يواجهها المجتمع في واقعه السياسي والثقافي والاجتماعي. والى برامج وخطط عمل تساعده على تجاوز نقاط ضعفه، وتنّمي فيه عناصر القوة والارتقاء.

وقد يملأ هذا الفراغ بالاستفادة مما هو مطروح في ساحة مجتمعات أخرى، من أفكار وبرامج، دون ملاحظة للخصوصيات المحلّية، مما يسبب نوعًا من الإرباك في بعض الأحيان.

فرب فكرة تكون مناسبة جدًا لوضع مجتمع، لكنها لا تتلاءم مع واقع مجتمع آخر، أو يكون ذلك المجتمع أحوج إلى سواها، كما أن بعض البرامج والمناهج قد تصلح لظرف دون آخر، ولبيئة دون أخرى.

بالطبع نقصد بذلك ما ينبثق من خصوصية معينة، أو يتأثر باختلاف الأوضاع، أما الأفكار العامة، والبرامج العامة، التي تتجاوز الخصوصيات، فهي خارج سياق هذه الملاحظة.

■ ■ ■

الخطاب الديني والتحديات الداخلية

كان التحدِّي الأكبر أمام الخطاب الإسلامي في حقبٍ ماضية هو مواجهة التيارات المناوئة للإسلام.

ففي بدايات القرن التاسع الميلادي أدرك دعاة الإسلام خطر حملات التبشير التنصيري التي واكبت الاحتلال الأوربي للبلاد الإسلامية، وكان إلى جانبها نشاط استشراقي مكثّف يهدف إلى تشكيك المسلمين في دينهم، وإثارة الشبهات حول القرآن الكريم، وسيرة النبي ﷺ، والمفاهيم والتشريعات الإسلامية، طفحت به كتب كثير من المستشرقين ودراساتهم.

فانبرى المخلصون الواعون من علماء الأمة بألسنتهم وأقلامهم وأرواحهم لردّ هذه الهجمات العاتية، وبذلوا قصارى جهدهم للوقوف أمام تلك الموجات العارمة، رغم محدودية إمكاناتهم قياسًا بقدرات الغزاة الذين يستندون إلى ميزانيات ضخمة، وهيمنة عسكرية سياسية، ومراكز أبحاث وتخطيط.

وفي العقود الأولى من القرن العشرين الميلادي، كانت هناك معركة أخرى تنتظر دعاة الإسلام، هي أشدّ شراسة من حملات التنصير وشبهات الاستشراق، وهي مواجهة المدّ الشيوعي والتيارات العلمانية المناوئة للدين. ذلك أن معظم التيارات العلمانية التي ظهرت في البلاد الإسلامية، أخذت منحى المحاربة والمناوأة للدين، بخلاف معظم تيارات العلمانية في الغرب التي التزمت الحياد تجاه الدين.

فقد استثمرت هذه التيارات المناوئة أرضية السخط والرفض للواقع السيئ المتخلف لدى جماهير الأمة، وتبنّت شعارات الثورة والنهوض، داعية إلى التنكر للدين والتخلص منه؛ لأنه يتحمل مسؤولية تخلف الأمة وانحطاطها. وتمكنت هذه التيارات من استقطاب شرائح من أبناء الأمة، ووصلت إلى مواقع السلطة والحكم في عدد من البلدان العربية والإسلامية، عبر الانقلابات العسكرية، والتنظيمات الحزبية.

فكانت المعركة عنيفة قاسية في بعديها الفكري والسياسي، حيث عانى دعاة الإسلام من قمع الأنظمة التي انبثقت من هذه التيارات المناوئة.

وما كاد ينتهي القرن العشرون حتى انحسر مدّ تلك التيارات، وظهرت طلائع الصحوة الإسلامية، وارتفعت رايات الإسلام في كل مكان، إذ استعادت جماهير الأمة ثقتها بدينها، بعد أن وجدت تلك التيارات ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾[سورة النور، الآية: ٣٩]، وهكذا بدأ عصر الإسلام من جديد.

ومع أن هناك تحدّياتٍ خارجية لا تزال قائمة أمام الخطاب الإسلامي،

وفي طليعتها الحرب الإعلامية الثقافية الطاحنة على الإسلام، بوصفه دين إرهاب وعنف، التي تجاوزت كل أعراف وتقاليد العلاقات بين الأديان والحضارات والأمم، كما تمثل ذلك في الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للنبي محمد ﷺ، التي نشرتها صحيفة دنماركية ثم أعادت نشرها هذا العام عدد من الصحف في الدول الأوربية، في تحدٍّ سافر لمشاعر المسلمين، وإساءة صارخة لدينهم وهويتهم.

لكن مثل هذه التحديات الخارجية ليست على درجة كبيرة من الخطورة تستلزم وضعها على رأس التحديات وأولويات المهام أمام الخطاب الإسلامي.

إنني أعتقد أن الخطاب الإسلامي يواجه الآن تحدّياتٍ داخلية هي الأهم والأخطر على مستقبل الإسلام والأمة. فلا بدّ من الاستجابة لها والارتقاء إلى مستوى مواجهتها.

ولعل من أبرز وجوه هذه التحدّيات ما يلي:

أولًا: إنتاج ثقافة التنمية والبناء

فقد برع الخطاب الإسلامي في تعبئة جماهير الأمة ضد الأعداء، وضد واقع الفساد والانحراف، وتلك مهمة هدم وتقويض.

ولكن ما هو البديل الذي يجب أن تتجه الأمة لبنائه على الصعيد السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وبناء المعرفة وتنمية الأخلاق؟ وكيف يقود الإسلام معركة التنمية والبناء؟

هذا ما يحتاج إلى إجابة معمقة تتضمن برامج عمل، وآليات تنفيذ، وثقافة حركة وإدارة.

ثانيًا: العلاقة الإيجابية مع الآخر

المصالح في عالم اليوم متشابكة، والصراع والنزاع ليس هدفًا ولا إستراتيجية دائمة، وإنما هو ضرورة بمقدار مواجهة العدوان. كما أن الإسلام رسالة خير ورحمة للبشرية جمعاء.

من هذا المنطلق لا بدّ من إنتاج خطاب يساعد على الانفتاح والحوار مع الآخر، ولا بدّ من نشر ثقافة دافعة لصنع العلاقات الإيجابية مع الغير، ولتجاوز آثار مراحل الصراع والنزاع.

صحيح أن هناك اعتداءات لا تزال قائمة ضد الإسلام والأمة، لكن المطلوب حصر المواجهة والصراع مع الجهات المباشرة للعدوان دون استعداء للعالم كله، وتعميم الصراع على مستوى الأديان والحضارات.

والأشدّ إلحاحًا حاجة الأمة إلى ثقافة العلاقة الإيجابية مع الآخر الداخلي، حيث لا نزال نعيش آثار الصراعات القديمة التي حصلت بين الأسلاف في القرون الأولى لتاريخ الأمة، والتي تتفجر اليوم على شكل فتن ونزاعات طائفية. كما لا يزال التنوع القومي والقبلي عائقًا أمام الوحدة الوطنية، والاستقرار السياسي، في عدد من البلدان العربية والإسلامية.

ثالثًا: ترشيد التوجهات والممارسات الدينية

فالإقبال على الدين، وارتفاع المعنويات في أوساط المتدينين، قد يدفع

باتجاه الغلو والمبالغة في التوجهات والممارسات الدينية، خاصة وأن في تراث الأمة بمختلف مذاهبها ما يغذّي مثل هذه الاتجاهات.

كما أن بعض القوى الدينية التقليدية التي لا تمتلك مشاريع للتنمية والنهوض، قد تسعى لدغدغة مشاعر العامة، وعواطفهم الدينية، لتعزيز نفوذها ومواقعها، في مقابل صعود قوى الإصلاح والتطوير.

وليس مستبعدًا أن تدخل على الخط بعض الجهات الخارجية، أو بعض القوى المصلحية في الداخل لتشجيع اتجاهات المبالغة والغلو في الأوساط الدينية.

إن خطر توجهات الغلو كبير على مستقبل الإسلام والأمة، ولذلك حذّر اللّه تعالى الأمم السابقة من الغلوّ في الدين، يقول تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللّه إِلَّا الْحَقَّ﴾[سورة النساء، الآية: ١٧١].

وتتمثل أهم مظاهر خطر الغلوّ في النقاط التالية:

أ. تحريف المفاهيم، وإفراغ الأحكام الشرعية من مضامينها، والابتعاد عن مقاصد الدين وأهدافه، وإشغال الأمة بحالة طقوسية فارغة، تستنزف الجهود، وتصنع حالة من الإشباع الكاذب، والشعور الزائف بأداء الواجب نحو الدين.

ب.الاستغراق في الجوانب الغيبية على حساب العقل ومراعاة السنن الإلهية للطبيعة والحياة، مما عزَّز حالة التواكل والكسل،

وعدم البحث الموضوعي والمعالجة الواقعية لمشكلات الحياة، وفتح المجال أمام أسواق الشعوذة والدجل، التي تدّعي القدرة على تقديم مختلف العلاجات للأمراض الجسمية، والمشكلات النفسية، والقضايا الاجتماعية.

ج. تشجيع التطرف والتشدّد تجاه الآخر الخارجي والداخلي، انطلاقًا من تفاصيل الخلافات العقدية والتاريخية، وإغفال مساحات الالتقاء والاشتراك، لقد أصبح عندنا خطباء متمرسون في إذكاء الخلافات الطائفية، ومحترفون لإثارة الكراهية والبغضاء بين أبناء الأمة، وقد منحتهم القنوات الفضائية أفضل الفرص لرفع أصواتهم وبثّ سمومهم في مختلف الأرجاء.

د. ممارسة الإرهاب الفكري تجاه أيِّ رأي مخالف واتهامه بالمروق والابتداع، مما يوقف حركة الاجتهاد، ومسيرة التطوير والتجديد.

إن هذه التحديات الداخلية توجب على العلماء والدعاة المدركين لها أن يوجهوا خطابهم واهتمامهم نحو مواجهتها، وتبصير جماهير الأمة بما يخدم مصلحتها، ويصون رسالتها الإسلامية العظيمة عن عبث الغالين والمتزمتين.

ولا شك أنها مهمة شاقة تكتنفها صعوبات بالغة؛ لأن دعاة التشدّد والغلوّ يستثيرون عواطف ومشاعر العامة الدينية، ويستندون إلى آراء وتبريرات لها جذورها في التراث المذهبي لمختلف الطوائف والمذاهب، ويظهرون أنفسهم حماة للعقيدة وحراسًا لشعائرها، ولا يتورعون عن

التشكيك في دين من يختلف معهم ولو في أدنى التفاصيل.

الدعوة على بصيرة

لقد تحدّث النبي ﷺ بأمر اللّه تعالى له، عن أهم سمة لمنهجه في الدعوة إلى اللّه، وهي امتلاك البصيرة، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّه عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّه وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[سورة يوسف، الآية: ١٠٨].

والبصيرة من البصر والإبصار، فكما يحتاج الإنسان إلى حاسة البصر ليرى الأشياء المادية في هذه الحياة، وليتمكن من السير في طرقها متلافيًا الضياع والوقوع في الحفر والمزالق، كذلك يحتاج إلى المعرفة والوعي لتقويم الآراء والأفكار، والتمييز بين مسالك الخير ومهاوي الشر والفساد. وتلك هي البصيرة.

وكون الداعي على بصيرة في دعوته يعني أمرين:

الأول: اطمئنانه للفكرة ووضوحها عنده، حيث لا يصلح للدّاعي أن يطرح فكرة لم يجتهد في بحثها، ولم يتأكد من صحتها، ولا ينبغي له أن يجترّ في خطاباته طرح ما هو سائد ومتناقل دون تحقيق وتمحيص.

ومن المؤسف جدًّا أن تجد بعض العلماء والدعاة ينقلون للناس روايات تاريخية، وآراء عقدية، ومسائل ذات تأثير في أذهان الناس وسلوكهم، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التأكد من صحة تلك النقولات، اتكالًا على ما

سمعوه من خطباء آخرين، أو أخذًا من مصادر غير معتمدة، أو استجابة لرغبة المستمعين.

إن وسائل البحث وأدوات المعرفة أصبحت متوفرة ومبذولة، فلا عذر للمقصرين والمتقاعسين.

الآخر: معرفة الواقع الخارجي الذي تلامسه الفكرة المطروحة، فليست كل فكرة صحيحة صالحة للعرض في كل زمان ومكان، ولعلّ المقصود بالحكمة في الدعوة في نصّ الآية الكريمة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾[سورة النحل، الآية: ١٢٥] هو اختيار القول المناسب للموقع المناسب.

من هنا يحتاج الدعاة في كل مجتمع إلى تقويم ظروف مجتمعهم، ودراسة أوضاع البيئة التي يتحركون فيها، لينطلق خطابهم الديني من خطة مدروسة، وليركزوا على الأولويات.

وقد تحدّث العلامة الشيخ عبداللّه العَلَمي الغزّي الدمشقي أستاذ دروس التفسير في الجامع الأموي بدمشق (المتوفي سنة ١٣٥٥هـ-١٩٣٦م) حول هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّه عَلَى بَصِيرَةٍ﴾[سورة يوسف، الآية: ١٠٨] في كتابه القيم (مؤتمر تفسير سورة يوسف) فقال تحت عنوان (أكثر دعاة أهل اليوم هم على غير بصيرة):

«النبي عليه الصلاة والسلام، كان يدعو إلى اللّه على بصيرة، وهكذا خلفاؤه وعلماء السلف والأئمة المجتهدون وسائر العلماء الصالحين،

ولكن من المؤسف، أن أكثر دعاة أهل اليوم، هم على غير بصيرة؛ لأنهم مزجوا الدخائل بعقائد الدين، وأدخلوا البدع والأخلاق الرديئة في العوائد الإسلامية، وعلّموا الجهال تعاليم خادعة، لبِّست الغيّ بالرشاد، كما علموهم التأويلات الباطلة، التي شبهت الحق بالباطل، حتى صار الجبر «توحيدًا»، وإنكار الأسباب «إيمانًا» وترك الأعمال المفيدة «توكلًا» ومعرفة الحقائق «كفرًا وإلحادًا» وإيذاء المخالف في المذهب «دينًا» والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات «صلاحًا». واختبال العقل وسفاهة الرأي «ولاية وعرفانًا» والذلة والمهانة «تواضعًا» والخنوع وقبول الضيم «رضى وتسليمًا» والتقليد الأعمى لكل متقدم «علمًا وإيقانًا»[١].

هذا ما كتبه الشيخ الجليل قبل ثمانية عقود من الزمن عن دعاة عصره، فهل دعاة اليوم أفضل حالًا من أولئك؟ هذا ما نأمله ونرجوه.

■ ■ ■

[١] عبدالله العلمي الغزيّ. مؤتمر تفسير سورة يوسف ﷺ، ج٢، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ ـ١٩٦١م، (دمشق: مطابع دار الفكر)، ص١٤٢٩.

الإصلاح الثقافي ومداراة الجمهور

يبدو أن عددًا غير قليل من العلماء والدعاة يجدون أنفسهم مضطرين لمسايرة بعض الأفكار والآراء والممارسات السائدة في الساحة الدينية، رغم عدم قناعتهم بصحتها لأنها لا تنطلق من دليل معتبر، أو لمنافاتها مع الموازين الشرعية ومصالح الأمة.

لكنهم يمتنعون عن إبداء رأيهم نحوها، بل قد يظهرون الموافقة عليها والتأييد لها، خلافًا لقناعاتهم، وما يؤمنون به في قرارة أنفسهم. ويبوحون بذلك للمقرّبين منهم، وفي المجالس الخاصة والمغلقة.

ولهذه الظاهرة أسباب ومبررات لعلّ من أبرزها ما يلي:

١. مراعاة الجانب السياسي فيما يرتبط بالآراء التي تعارض توجهات السلطة الحاكمة، فيخشى العالم والمبلِّغ طرح الرأي المخالف لتوجهات السلطة، أو الإنكار على الرأي المتبنى من قبلها، تجنبًا للصدام معها،

وما قد ينتجه من أخطار وأضرار.

٢. الحذر من القوى التقليدية التي ترفض أيَّ مراجعة للأفكار العقدية والآراء الفقهية السائدة، وتواجه أيَّ تطوير وتغيير في التقاليد والممارسات الدينية القائمة.

وإذا ما تجرأ عالم على المخالفة والنقد، فإنهم يشهرون أمامه سلاح الفتوى التي تشكك في دينه وتحكم عليه بالابتداع والضلال، لاغتيال شخصيته، وتحجيم دوره، ومحاصرة تأثيره.

٣. الخشية من رد فعل الجمهور، الذي يتمسك في الغالب بموروثاته، وما نشأ عليه من أفكار، وألِف من عادات وتقاليد.

وحين يتحدث عالم بما يخالف تلك الأفكار والعائدات السائدة فإنه يغامر بموقعيته في وسط ذلك الجمهور.

خاصة إذا كان الجمهور يعيش تحدّيًا من قبل الآخر الديني، فإنه يتشبث بكل خصوصياته بسبب القلق على هويته، وينظر إلى أيّ محاولة تغيير وتطوير وكأنها خطوة على طريق التنازل للآخر والذوبان فيه.

لمثل هذه العوامل والأسباب يلوذ هؤلاء العلماء والدعاة بالصمت، إيثارًا للسلامة، وتجنبًا للمشاكل، وحفاظًا على الموقعية الاجتماعية.

وقد يبرّر البعض منهم بأن المضاعفات التي قد تنتجها محاولة التصحيح أضر من سلبيات الواقع القائم، فهي قد تؤدي إلى الاختلاف وتمزيق وحدة

المجتمع، وقد تفتح الباب أمام المناوئين للنيل من الثوابت والأصول.

ثم إن عالم الدين إذا فقد ثقة الجمهور فسينتهي دوره وينعدم تأثيره.

كما أنهم قد يشككون في إمكانية الإصلاح والتغيير، وفي القدرة على إنجاز اختراق إصلاحي لواقع الساحة، ويستشهدون بمعاناة بعض العلماء المصلحين وكيف دفعوا الثمن الباهظ من سمعتهم ومكانتهم، وبفشل بعض المحاولات الإصلاحية في المجال الفكري والاجتماعي.

ومع وجاهة بعض هذه المبررات، إلا أن هناك أبعادًا يجب أخذها بعين الاعتبار، عند معالجة هذا الموقف.

أولًا: المسؤولية الشرعية التي تحمّل العلماء والدعاة وظيفة تبيين الأحكام والمفاهيم الصحيحة للدين، حيث تحذّر عدة آيات من القرآن الكريم، وعدد كبير من الأحاديث والنصوص الشريفة، من كتمان العلم، وسكوت العلماء عن مظاهر الانحراف والفساد، وأن عليهم أن ينهضوا بواجب التبليغ والإرشاد والإصلاح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن لا يتقاعسوا عن ذلك الدور خشية من الناس، أو حفاظًا على المصالح المادية والمكاسب الاجتماعية.

ويبدو أن ما يعترض هذا الدور من مصاعب وعوائق قد تقعد بالعالم عن القيام به، هو ما أوجب شدة التحذير الإلهي، وعنف الوعيد والتهديد للمتقاعسين عنه.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ

ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة، الآية:١٧٤].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٥٩]

وروي عن رسول اللّٰه ﷺ أنه قال: «أيّما رجل أتاه اللّٰه علمًا فكتمه وهو يعلمه، لقي اللّٰه يوم القيامة ملجمًا بلجام من نار»[١].

وعنه ﷺ: «إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة اللّٰه»[٢].

إن إحجام العلماء عن تبيين المفاهيم الصحيحة، وسكوتهم على الأخطاء السائدة في الأفكار والممارسات لدى الجمهور، يكرّس الواقع السيئ الذي تعيشه الأمة، ويغري الناس بالجهل والانحراف، ويعطي عن الإسلام نظرة سلبية أمام الرأي العام الداخلي والخارجي. وهذا ما أنتج تشويه سمعة الإسلام في العالم، وحدوث ردّات فعل تجاه الدين لدى بعض الأوساط من أبناء الأمة.

ثانيًا: إدراك طبيعة التدافع الاجتماعي السارية في مختلف جوانب حياة الناس ينبغي أن تحفّز المصلحين على الثبات والاستقامة، ففي كل جانب هناك صراع قوى وإرادات، لكن من يتهيّب المواجهة، أو يسارع إلى الفرار

[١] بحار الأنوار. ج٢ ص٦٨.
[٢] وسائل الشيعة. ج١٦، ص٢٦٩، حديث ٢١٥٣٨.

والانسحاب، فإنه سيعطي الطرف الآخر فرصة الغلبة والتقدم بسهولة ويسر.

إن القوى المهيمنة على ساحة الجمهور، تستفيد كثيرًا من تهيّب قوى الإصلاح والتجديد، ومن سرعة انسحاب بعض جهاتها.

وإنه يمكن القول بثقة: إن حملة الأفكار الإصلاحية، ليسوا قلة في أوساط العلماء والدعاة، لكن حالة التكتم وعدم الجهر بالرأي، لا يمكّنهم من اكتشاف بعضهم بعضًا، فيشعر كل مؤمن بالتغيير والإصلاح وكأنه وحيد تستفرد به الجهات الأخرى.

كما أن الرعب من القوى المهيمنة يمنع معظم الإصلاحيين من التضامن مع بعضهم بعضًا، فإذا اتجهت سهام التجريح والطعن صوب أحدهم، فإن الآخرين ممن يحملون الأفكار والتوجهات ذاتها، يلوذون بالصمت، وينأون بأنفسهم، ويظهرون عدم علاقتهم بالمصلح المستهدف، حتى لا يصيبهم شيء من سهام المعركة، أو شرر نارها.

إن الحراك الفكري واختلاف الرأي حالة صحية، وليست خطأً أو ذنبا يُتورع عنه، ويُتسامى عليه، كما قد يتصور البعض، والآثار السلبية التي قد تنشأ من معارك الصراع الفكري واختلاف الرأي، هي إفراز لسلوك خطأ في التعامل مع الرأي الآخر، ناتج من روح الوصاية والاستبداد.

وعلى المشتغلين بالعلم والفكر، أن يعملوا لتعزيز حرية البحث العلمي، والتعبير عن الرأي، ولن يتحقق ذلك إلا بممارسة هذا الحق والدفاع عنه.

ثالثًا: هناك تطور واضح في مستوى الثقافة والوعي عند أبناء الأمة، فقد اتسعت رقعة التعليم، وانتشرت وسائل المعرفة، وتفتحت عقول الناس، وأصبحوا يواجهون تحديات الانفتاح على العالم، وأصبحت بعض الأفكار والممارسات السائدة تشكل عبئًا وعائقًا أمام مسيرة تفاعلهم مع تطورات الحياة، مما صيّر التجديد والإصلاح مطلبًا يدرك أهميته قطاع واسع من أبناء الأمة.

وهذا ما يجب أن يدركه الإصلاحيون، وأن يراهنوا على تقدم مستوى الوعي في المجتمع وتنامي الشعور بالحاجة إلى التغيير والتطوير في الساحة الدينية.

لكن أيّ تطوير وتغيير ينال بعض ما ألفه الناس وتوارثوه من أفكار وممارسات، يحتاج إلى قدر من الاستعداد وللتضحية وبذل الثمن، وإلى مستوى من الثبات والصمود، مع التزام الحكمة وترشيد أساليب المعالجة والطرح.

بقي أن نشير إلى أن ما نتحدث عنه من تطوير وإصلاح إنما يتجه صوب المتغيرات، وموارد البحث والنقاش في المعارف الدينية، وصوب التقاليد والممارسات، وكذلك ما يتعلق بالوسائل والأساليب، أما الثوابت الدينية، وما عليه إجماع الأمة، أو إجماع الطائفة، فتلك خطوط حمراء لا يسمح الالتزام الديني بتجاوزها.

■ ■ ■

الخطابة الدينية وعناصر الإتقان[١]

إننا نعلم جميعًا مدى تأثير بواعث الإنسان ومنطلقاته على أيّ عمل يقوم بإنجازه، سواء على مستوى طبيعة العمل، أو على الكيفية التي يُنجز بها، أو على مسار العمل ووجهته، فكلما كانت البواعث والأهداف خالصة وصادقة ونبيلة كان تأثير العمل أكبر وحظّه إلى النجاح والقبول، خلافًا للعمل الذي يُنجز على أساس ماديّ مصلحيّ هامشيّ؛ لأن مثل هذا العمل سيكون عرضة للنقص والخلل، وبؤرة للشوائب والثغرات.

وتظهر هذه الحقيقة أكثر وضوحًا وواقعية بخصوص الأعمال ذات الصبغة الدينية، وعلى هذا الأساس صار من اللازم على العاملين في هذا الميدان أن يظهروا أكبر قدر من التجرّد والإخلاص إلى اللَّه؛ لتحظى أعمالهم بالقبول والرضا منه سبحانه، ومن ثم تكون مباركة اللَّه تعالى عاملًا أساسيًا

[١] كلمة ألقاها سماحة الشيخ حسن الصفار في مؤتمر التبليغ الديني في الحوزة العلمية بمنطقة السيدة زينب بدمشق بتاريخ ٨/ ٥/ ١٤٢٤هـ الموافق ٨/ ٧/ ٢٠٠٣م.

في إنجاح العمل وبلوغ أهدافه المرجوة.

منطلقات الخطيب وأهدافه

الخطابة الدينية عمل عبادي لا بدّ أن يمارسه الإنسان على أساس من البواعث السليمة، والأهداف الصحيحة، فقد يستهدف الإنسان من الخطابة إحراز مكاسب مادية، وقد يسعى لاكتساب الشهرة والسمعة من خلال ذلك، أو لينال الإعجاب من مستمعيه، ولكن هذه الأهداف ليست هي ما يصبو إليه الإنسان المتديّن الصادق، والمؤمن الصالح، وإنما يتطلع المؤمن المتدين إلى ما هو أسمى من بواعث ومنطلقات تحفزه باتجاه الخطابة، ومن أهمها:

الاستجابة لأمر اللَّه سبحانه وتعالى، فالدعوة إلى اللَّه تكليف إلهي، منوط بكل إنسان مسلم مؤمن؛ قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[سورة النحل، الآية:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[سورة آل عمران، الآية:١٠٤]. وهاتان الآيتان تمثلان نموذجًا لكمٍّ كبير من النصوص التي تؤكد هذا المعنى، وتندرج في هذا السياق، فالإنسان المؤمن مسؤول أمام اللَّه عمّا يحمل من علم ومعرفة دينية، وهو مكلّف في نقلها إلى الآخرين ووضعها بين أيدي الناس، ليستنير بها من لا يعلم، ويتذكر من يعلم، فليس من الضروري أن يكون المتلقي لا يعلم ما نقول، وإنما أمر الإنسان المسلم بالتذكير في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[سورة الذريات، الآية: ٥٥]، وكذلك يندرج التبليغ الديني تحت عنوان التواصي بالحقّ

والتواصي بالصبر في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر، الآية:٣]. وهكذا ينطلق العمل التبليغي كاستجابة لأمر اللّٰه سبحانه، وبناء على ما تقدّم نفهم ما قاله العلماء المخلصون من استحضار نية القربة قبل أن يرتقي الواعظ والخطيب منبر الخطابة، ليعلم أنه يؤدي عملًا عباديًا يكتسب كماله حينما يقترن بنية القربة إلى اللّٰه.

ولكن ما يُؤسف عليه هو أن تغيب هذه الحقيقة من أذهان البعض فتسيطر عليه أجواء المادة وإيحاءات المصلحة، حتى تصبح الخطابة مهنة بالنسبة لهم، وسببًا من أسباب الارتزاق والتكسب لا غير، فهو يمارس هذا العمل من أجل أن يحصل على المكافأة، أو أن يُجرى له مرتب شهري وغير ذلك من المنافع الأخرى.

وهنا ينبغي أن نشير إلى أن بحث الإنسان عن رزقه وسعيه في تأمين لقمة عيشه أمر فطريّ وطبيعيّ، لا عيب فيه ولا حرمة، فضلًا عن كونه من ضروريات الحياة، ومستلزمات الإبداع في العمل. وعليه لا بدّ أن تتحمّل المؤسسة الدينية مسؤولياتها إزاء المبلغين والخطباء في تأمين ما يلزم من احتياجاتهم وما يؤمن لهم عيشًا كريمًا. وجميعنا على علم بأن المبلّغين والخطباء في المذاهب الأخرى ينتسبون إلى وزارات ومؤسسات تتحمّل عنهم أعباء الحياة وتكاليفها، كوزارة الأوقاف والإعلام وغيرها، بينما أصرّ أتباع أهل البيت على ألّا يرتبطوا إلا بالمرجعية الدينية، حرصًا منهم على الاستقلال، وخوفًا من أن تملى عليهم بعض المواقف مقابل استحقاق الالتزام بتكفّل احتياجاتهم، وهذا المنحى الاستقلالي هو الذي يوجب على

المؤسسة المرجعية القيام باحتياجات الخطباء والمبلغين، ليتفرغوا لأداء مهامهم الرسالية في التبليغ والإرشاد، وملء الفراغ المعنوي الذي قد يتسبب عن انصرافهم فيما يشغلهم من هموم العيش وتأمين الحاجات.

فالمبلّغ والخطيب هو فرد كغيره مثقل بالتزامات الحياة وتأمين العيش لمن يعول. فلا يترك فريسة للفقر والعوز، وهما من أهم العوامل التي تؤثر على بواعث الخطيب ونيّات المبلّغ، فتجنح بها إلى الرغبة في تحصيل المادة والاستزادة منها، ولا يفوتنا أيضًا أن نتوجّه إلى الخطباء والمبلّغين، ونهمس في آذانهم بكل حبٍّ واحترام بعدم استغلال بعض النواقص والتأكيد عليها، فلا ينسوا أنهم رجال مؤمنون يحملون هموم دينهم، وطموحات رسالتهم، ويؤدون عبادة مقدسة لا ينبغي التهاون في تضييعها من أجل التوجه إلى المادة والجنوح إلى المصلحة، ونود التذكير في هذا المقام بحديث مروي عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام، قال: «شيعتنا ثلاثة أصناف، صنف يتزيّن بنا، ونحن زينة لمن تزيّن بنا، وصنف يستأكل بنا، وصنف منا وإلينا»[١] ونعيذكم وأنفسنا من أن نكون من الصنف الثاني الذين يستأكلون بأهل البيت عليهم السلام.

كما ورد في حديث آخر عنه عليه السلام: «من استأكل بنا افتقر»[٢].

فعلى المبلّغ أن يستحضر هذه الحقيقة في ذهنه حينما يرتقي المنابر، ويمارس الخطابة ووعظ الناس وإرشادهم، وذلك أن يتيقّن من أنه يؤدي

[١] الخصال، الشيخ الصدوق ص١٠٣.
[٢] مشكاة الأنوار، علي الطبرسي، ص١٥٠.

واجبًا على أساس استجابته لأمر اللَّه وتكليفه بالدعوة والإرشاد، وهذا هو المنطلق الأول الذي يشكل قاعدة أساس، لعمل الخطيب.

الوعي بالتحديات

أما المنطلق الثاني فيتركز في وعينا لخطورة التحدّيات الراهنة، ولا يخفى على أحد ما نواجه اليوم من تحدّيات بالغة الخطورة، وضعتنا تحت ضغوط هائلة، وقد اتسعت دائرة هذه التحدّيات لتشمل وجودنا وهويتنا وثقافتنا وقيمنا الدينية والأخلاقية، ولا شك في أن الأخوة الأساتذة والمبلّغين على درجة من إدراك هذا التحدّي الشامل وما ينطوي عليه من مخاطر تهدّد عمقنا وتستهدف داخلنا، فضلًا عن خارجنا، وقد بلغت هذه التحدّيات ذروتها في مرحلتنا الراهنة.

فأمريكا اليوم لا تمثل قوة عسكرية غازية وحسب، ولم تقتصر أسلحتها على الحراب والقنابل والجيوش المعبأة للقتال، وليست أهدافها محصورة في شواطئنا وأرضنا وثرواتنا، كل ذلك تستهدفه أمريكا، ولكنها تطمح إلى أبعد منه، وترنو إلى ما هو أعمق وأخطر، حينما وضعت ثقافة الشعوب وقيمها وركائزها المعنوية في أولويات أهدافها، محاولة منها في سحق كل مقوماتها وأذابت خصوصياتها كلّها في بوتقة حضارتها الغربية، وقد تمكنت أمريكا من التسلل في غزوها إلى غرف نومنا ومضاجع أبنائنا، لتبشر بثقافتها وأنماط سلوكها، فهي العدو الذي يهدّدنا في عقر دارنا، بكل ما يمتلك من الأساليب وما يعبئ من وسائل مؤثرة.

وما علينا إلّا أن نشمرّ عن سواعدنا ونشحذ هممنا، ونستثير عقولنا

ونحشد طاقاتنا للوقوف بوجه هذا الخطر الداهم، والعدو الغاشم، فنحصن أبناءنا ونحمي مجتمعاتنا، ونقف بوجه هذه العاصفة التي تستهدف مسخ شخصية هذه الأمة، وتحاول أن تنسف القيم الروحية والمعنوية لديننا الإسلامي الحنيف وغيره من الأديان والمعتقدات لدى المجتمعات البشرية، كل ذلك مصحوبًا بإرغام الشعوب على أن يعبدوا إلهًا واحدًا هو المادة والمادة فقط. هذه هي أهدافهم المعلنة، وعلينا أن نقبل هذا التحدّي مع علمنا بالفروق الهائلة والهوّة السحيقة بيننا وبينهم على صعيد الإمكانات المادية والوسائل المتقدمة.

فلا يبقى لدينا إلا أن نراهن على النوعية بالنسبة للعمل الدفاعي الذي نعزّز به مواقعنا ونحصن مواضعنا، ومن أهم العناصر الجوهرية في قوة العمل وشمول تأثيره تمتعه بعناصر الإخلاص والصدق والإتقان، حتى نستثير الكوامن الروحية في النفوس لنواجه بها هذا التفوق الإعلامي الهائل على صعيد المادة والتكنولوجيا وتقدّم الوسائل، وهذا ما يخصّ النقطة الأولى المتمثلة بمنطلقات الخطيب وأهدافه.

إتقان الخطاب الديني

إن المعادلة التي تحكم حركة العالم في هذا الزمن ليست في قولنا نعمل أو لا نعمل، فضرورة العمل أمر مفروغ منه، وطبيعة الحياة تدفع الإنسان وتقهره على أن يعمل، وذلك من أجل أن يوفر الحدّ الأدنى من مستلزمات الحياة واحتياجاتها، سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات، ولكن معادلة اليوم التي توزن بها الأعمال في العالم هي ما ينطوي عليه العمل من عناصر

الجودة وجوانب الإتقان، وهذه المعادلة هي التي تتبارى في مضمارها الدول وتتسابق الشركات، وتتنافس المصانع، الكلّ ينتج، والجميع يصنع وهذا مهم، ولكن الأهم من ذلك هو ما يتمتع به المنتج من نوعية وجودة، فالعبرة بالكيف لا بالكمّ، ولذلك وضع العالم مقاييس الجودة لما يُنتج، وجعلها من آيزو تسعة آلاف فما فوق، فالقضية ليست في الأصل الإنتاج، وإنما تتلخص في أيّ إنتاج هو الأجود، والتنافس القائم اليوم بين اليابان وأمريكا لا ينحصر في كمية الإنتاج، وإنما يحتلّ التسابق على مستوى الجودة والنوعية المساحة الأوسع في حلبة هذا التنافس.

وفي وقتنا الراهن اتسعت حلبة التنافس وتجاوزت مجال الصناعة وجودتها، ففي إطلالة على المشهد الإعلامي والثقافي في العالم نكتشف بسهولة هذا التسابق الحثيث والسعي المتواصل من أجل تقديم أفضل مادة إعلامية وفكرية وثقافية من حيث التأثير والاستقطاب، وما هذه الفضائيات ومحطات الإعلام المتنوعة ومواقع الإنترنت اللّامحدودة إلّا انعكاس لهذا التنافس المحموم، وكما تعلمون فإننا كمسلمين نعيش في قلب هذه الحلبة، بل إننا من المستهدفين الأوائل لهذا النشاط الإعلامي والثقافي والفكري الهادف.

فأبناؤنا وشبابنا هم الهدف الأساس لهذه الحملات الثقافية الغازية، وأصبح من الطبيعي أن يتلقى هذا الجيل من أبنائنا أفكاره وأنماط سلوكه من الفضائيات والإنترنت وغيرها من وسائل الإعلام والثقافة، كما يتلقى من الحسينيات والمساجد والنوادي الثقافية والفكرية، وهكذا فنحن نعيش

حالة التنافس شئنا أم أبينا، وهذه الحالة تفرض علينا جهودًا إضافية لرفع مستوى خطابنا وتطوير آلياتنا ووسائلنا لنكون رقمًا مؤثرًا في هذا الصراع الشامل الذي تمثل الثقافة والفكر أهم ساحاته، وأكثرها تعقيدًا، وأيّ تقصير أو قصور في هذا الجانب إنما هو خطوة تراجعية تتيح مساحة لمنافسينا أن يتقدموا أو يتفوقوا علينا من خلال الاستحواذ على عدد أكبر من أبنائنا وشبابنا. وعلينا أن نكون بمستوى هذا التحدّي، فلم تعد القضية أنني أرتقي منبرًا وألقي خطابًا، وإنما صار نوع الخطاب وجودته وما ينطوي عليه من عناصر القوة والتأثير هو الأمر الأهم في هذا النشاط.

وعلى هذا الأساس فنحن ملزمون بالتفكير وبذل الجهود المضاعفة على صعيد رفع مستوى خطابنا وإعلامنا بكل ألوانه وأشكاله.

وحينما نرجع إلى ثقافتنا وتراثنا الإسلامي فإننا نلتقي بنوعين من التأكيدات والتعاليم، أحدهما يحثّ على العمل مطلقًا كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[سورة التوبة، الآية:١٠٥]، بينما استهدفت نصوص وخطابات أخرى الدفع باتجاه إتقان العمل ورفع مستوى الجودة فيه. يقول تعالى فيما يتعلق بالتخاطب مع الناس ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة الإسراء، الآية:٥٣]، وهذه الآيات صريحة في المطالبة برفع مستوى الخطاب إلى أفضل درجة وأحسن نوعية. لم يعد الأمر أن نطلق الكلام وكفى، وليست القضية أن نملأ ظرفًا زمنيًا معينًا خطابةً وحديثًا وإنما المطلوب هو الحرص على أن يرتقي الخطاب إلى أفضل مستوى وأجود نوعية ممكنة.

وكذلك حينما ندخل في صراع ونقاش مع التيارات الفكرية الأخرى والخطابات المتنوعة المنافسة، لا بدّ من إدارة هذا الميدان بأفضل ما يمكن من الكلام، وبأنجح الأساليب وأحسن الوسائل. ولذلك يقول تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة العنكبوت، الآية:٤٦]. لا بدّ من إحراز التفوق على الآخرين لكسب الجولة حينما يحتدم الصراع ويشتدّ التنافس.

ولا يقتصر الأمر على ساحة الفكر وميدان الإعلام ونوادي النقاش، وإنما يتعدّى إلى نوعية المواجهة العملية وكيفية التعامل مع الآخر حيث يرشدنا القرآن إلى أن نتبنّى الأسلوب الأحسن في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة المؤمنون، الآية:٩٦]. وهكذا أيها الإخوة العلماء والمبلّغون، إن النصوص الإسلامية تؤكد على جودة العمل وتحصينه كتأكيدها على أصل العمل وإنجازه، وكلّكم ـ بحمد اللّه ـ في صميم أجواء هذه النصوص ومن أهل العلم والاطّلاع بها.

وفيما ينقل عن رسول اللّه ﷺ كدرس بليغ في هذا المجال حينما دفن ولده إبراهيم، وألحده مع جمع من الصحابة كان حريصًا على إتقان هذا العمل وأن توضع كل لبنة وحجرة في مكانها المناسب، وأن تسدّ الثغرات والانفراجات بين الصخور، وقدّر النبي أن عمله هذا يثير تساؤلًا في نفوس أصحابه ومؤدّاه، هل يحتاج القبر إلى كل هذا الإتقان، وأجاب عن ذلك بالحديث المشهور عنه: «إن اللّه يحبّ عبدًا إذا عمل عملًا أن يتقنه»[١]،

[١] وسائل الشيعة، ج٣ ص٢٣٠.

وحتى الذبح يأمرنا رسول اللَّه أن نأتي به على أحسن وجه، وذلك في قوله ﷺ: «إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح»[١].

ونخلص من هذا الموجز أنه ليس من الصحيح أن نخطب كيفما اتفق ولا نرتضي لأنفسنا، إلا بإتقان خطاباتنا والإعداد لها والتفكير في عناصر قوتها وإبعاد كل عناصر الضعف فيها، وذلك ما يفجّر المواهب ويرفع من مستوى العالم والخطيب والمبلّغ، إضافة إلى جعله قريبًا من الأهداف التي يتوخّاها حين إعداد الخطاب وإلقائه.

فالمتلقّي يعقد مقارنة بين ما يتلقى من خطابات وما يسمع من كلام، حتى وإن لم يقصد ذلك.

عوامل الإتقان

بعد أن عرفنا أهمية الخطاب وانعكاساته على المتلقي وعلى الخطيب نتساءل عن أهم العوامل وأفضل السبل ذات المدخلية في عملية الإعداد ورفع مستوى الخطاب، ويمكننا أن نجيب من وحي التجربة والملاحظة عن هذا التساؤل المشروع، فإن ذلك يتلخص في ثلاثة عوامل:

العامل الأول: سعة أفق الخطيب ثقافيًا ومعرفيًا

فكلما كانت ثقافة الخطيب أوسع، ومعارفه أعمق، كانت قدرته على إتقان الخطاب أكبر، ويؤسفنا القول إن البعض منّا، نحن طلبة العلوم

---

[١] مسلم بن الحجاج النيسابوري. صحيح مسلم، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، (الرياض: دار المغني)، ص١٠٨٠، حديث ١٩٥٥.

الدينية لا يجهد نفسه في كسب المعرفة والاطّلاع الثقافي، وقد استمعنا إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي يعتبر فيه الدعوة باللسان جهادًا وذلك في قوله عليه السلام: «اللَّه اللَّه في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»، واشتقاق الجهاد كما يقول اللغويون: إما من الجَهد والتعب والمشقة، أو من الجُهد وهو بذل الوسع والطاقة، ولذلك على من يريد أن يمارس الخطابة أن يعلم أنه يزاول عملًا جهاديًا يفرض عليه درجة عالية من الاستعداد، فليس من الحكمة أن يزجّ الإنسان بنفسه في ساحة المعركة قبل أن يتدرّب على فنون القتال ويكمل أهبْة الاستعداد، ونحن نعيش في زمن مثالي من حيث توفر وسائل المعرفة ومنابع الثقافة، فأين نحن من أولئك العلماء في أزمنة متقدّمة حينما كانوا يفتقرون إلى أبسط الوسائل ويعيشون ظروفًا غاية في الصعوبة، فلا يمتلكون ما نمتلك من وسائل الإنارة والتكييف، ولم تكن الكتب التي بين أيديهم على هذا المستوى من الطباعة الواضحة التي تريح الناظر إليها، ومع ذلك تحدثنا سيرهم عن الجهود الجبارة التي كانوا يبذلونها، والليالي الطوال التي يسهرونها، فسخّروا كلّ أوقاتهم الشريفة في طلب العلم وكسب المعرفة، والإنسان المؤمن مطالب في بذل كل جهد مضاعف وعلى جميع المستويات.

فإذا نظرنا إلى الجانب العبادي فلا تتوقف التعاليم عند الواجب المحدد من الصلاة مثلًا، وإنما تحفز المؤمن وتحثّه على أن يضاعف عبادته لتكون صلاته أضعاف المفروضة عليه، على مستوى الواجب الإلزامي، فالمؤمن حقًا من صلى ٥١ ركعة في اليوم والليلة، وكذلك الحال بالنسبة إلى الصلاة

نفسها فهي أقل وأقصر بكثير فيما لو اختزلنا أعمالها واقتصرنا منها على الواجب فقط، وإنما نحن نؤدّيها مع ما ورد فيها من مستحبات.

فالجهد الإضافي أمر مطلوب على جميع المستويات، طلبًا للكمال والإتقان، وطالب العلم في حوزاتنا الدينية لا ينبغي أن يكتفي بالمنهج العلمي المقنن في مدرسته، فذلك هو الحدّ الأدنى والدرجة المناسبة، ولكن الميدان يبقى مفتوحًا في التسابق والتنافس اللّامحدود في طلب العلم واكتساب المعرفة وتوسعة الثقافة، وهذا هو العامل الأول من عوامل إتقان الخطاب.

العامل الثاني: تعرّف خصوصيات المخاطبين

ومن العوامل المهمة في إتقان الخطاب أن يكون الخطيب محيطًا وعارفًا بالظروف الاجتماعية للمخاطبين وعلى أكثر من صعيد، فلكلّ مجتمع خصوصياته ومشاكله ومستواه، ولكل بيئة ما يميزها عن غيرها، ولكلّ مقام مقال، فالمعرفة تساعد الخطيب على أن يكيّف خطابه بما يتلاءم مع أجواء المخاطبين وظروفهم ويجنّبه الوقوع في الهفوات ويقيه العثرات. فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام: «العامل العارف بزمانه ـ وفي نصّ: العارف بأهل زمانه ـ لا تهجم عليه اللوابس»[١]، وخير مثال لوعي ظروف المجتمع واختلاف طبائعه ما نلاحظه في سيرة الأنبياء وقصصهم وطرائق عملهم، فكل نبيّ يركّز على قضية ويهتم بمحور معيّن، وليس ذلك أمرًا عفويًا، وإنما مردّه إلى تشخيص واقع المجتمع وتعرّف أوضاعه ومحاولة إصلاحها.

[١] الكافي. ج١ ص٢٦.

فنبيّ اللّه إبراهيم كان تركيزه على التوحيد ونبذ عبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ...﴾[سورة الشعراء، الآيات: ٦٩ ـ ٨٩]، وقد بذل النبي إبراهيم في هذا المجال أكثر جهوده وكان جهاده في هذا الميدان.

بينما انصبّت جهود موسى ﷺ على محور آخر، فلا نجد في قصة موسى ما كان في قصة إبراهيم، من حديث الأصنام والأوثان، وإنما يندر أن يذكر ذلك، ولكن المحور الذي ركّز عليه موسى يتمثل في قوله تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[سورة طه، الآية: ٤٣]، فالأمر هنا يتعلق بمقارعة الاستبداد والطغيان السياسيّ، مع أننا نجد بعض الإشارات إلى وجود الأصنام في قوله تعالى على لسان قوم موسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[سورة الأعراف، الآية: ١٣٨]، ولكن الأمر الأساس لموسى كان يتركز على مقارعة الطغيان والاستبداد، ولنبيّ اللّه لوط مهمة أخرى، فقد أنيط به معالجة الفساد الأخلاقي كما يحدّث القرآن في قوله تعالى، يحكي خطاب لوط لقومه: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[سورة العنكبوت، الآية: ٢٨]. وكانت رسالة شعيب ﷺ في مكافحة الفساد الاقتصاديّ المتفشي في مجتمعه آنذاك، فكان يخاطب قومه: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾[سورة الأعراف، الآية: ٨٥].

وفي اختلاف نمط الخطاب القرآني بين الآيات المكية والمدنية مثال واضح على مراعاة الظروف وتشخيص البيئة الاجتماعية، فالآيات النازلة في المدينة تختلف عن تلك النازلة في مكة من حيث الأسلوب وضرب الأمثال ومحاور التركيز، وكلّ ذلك يدلّ على مدخلية عنصري الزمان

والمكان في تحديد نوع الخطاب واختيار أساليب أدائه. فعندما تكون مبلّغًا في سورية فأنت في وضع يختلف عنه فيما لو كنت مبلّغًا في لبنان مثلًا أو في الهند أو الباكستان، ومن هنا تبرز قيمة التشخيص الذي يقوم به المبلّغ لطبيعة المجتمع الذي يؤدي فيه رسالته.

وجدير بالإشارة إلى أن المبلّغ قد لا يكون قادرًا على إنجاز هذه المهمة بمفرده، وهنا يأتي دور المؤسسة التبليغية في إسعافه وتزويده بتفاصيل ومعلومات يستعين بها على تكوين صورة قريبة من واقع الوسط الاجتماعي الذي يعمل فيه.

العامل الثالث حسن الإعداد والتحضير للخطاب

فقد علّمتنا التجربة أن الخطاب الذي نستعدّ له ونحسن إعداده بشكل جيد يكون خطابًا مناسبًا، وينطوي على قدر مهم من التأثير في نفوس السامعين، بينما لا يأتي الخطاب الارتجالي الفاقد للإعداد والتحضير بنفس النتائج، وإنني لأشعر قبل غيري بضعف هذا الخطاب ومحدودية تأثيره، وهذا أمر طبيعي وبديهي، ولذلك فعلى الإنسان أن يستعدّ لكل حديث مهما كانت أهميته، حتى وإن كان لقاءً فرديًا، فتحديد نوع البداية، وتحديد مواطن التوقف والانطلاق وأسلوب الحديث، والعوامل المؤثرة على المخاطب، مما يساعد على نجاح المهمة، وكل إنسان يريد لعقله أن يُحترم، ولكلمته أن تُسمع عليه ألّا يغفل هذا الأمر.

ولذلك ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لسان العاقل وراء قلبه، وقلب

الأحمق وراء لسانه»[١].

فالإنسان المؤمن يجب أن يستعدّ جيدًا ويفكر فيما يتحدث به، وينقل في هذا المجال عن الشيخ الخطيب محمد تقي فلسفي ﷺ، وهو من كبار الخطباء في هذا العصر: أنه لا يلقي خطابًا أو محاضرة قبل أن يستعدّ لها بالتحضير لمدة لا تقل عن ثمان ساعات، وقد طبعت له كتب وترجمت إلى اللغة العربية وفيها الكثير من الفوائد العلمية والثقافية.

وكذلك الدكتور الشيخ أحمد الوائلي ﷺ كان هو الآخر يبذل جهدًا كبيرًا في الإعداد والتحضير، مما رفع مستوى خطابه ومحاضراته إلى ما هو معروف عنها من الجودة والإتقان، ولذلك فلا مجال للاستهانة والتكاسل فيما يخصّ التهيؤ لكل عمل أيًّا كان حجمه ومهما كانت طبيعته، ونحن نعيش عصرًا تتوفر فيه كل مستلزمات الإعداد والإتقان.

فالمصادر متوفرة، وعناء الوصول إليها يكاد لا يذكر، إضافة إلى كافة الوسائل والعوامل المساعدة، فلا يبقى على المبلّغ إلا أن يعتصر ذهنه، ويحرّك عقله، ويفكّر في موضوعه، ثم يعود إلى المصادر ذات الصلة، إضافة إلى التشاور مع المحيط الاجتماعي من حوله، لتكتمل لديه عناصر الخطاب الجيّد والعمل المتقن.

من الممكن لكل منكم وهو يذهب للتبليغ في إحدى المدن أن ينظم زيارات لبعض الشخصيات في البلد للتشاور معهم والاستفادة من آرائهم؛

[١] وسائل الشيعة، ج٥١ ص٢٨١.

لأنهم أعرف بشؤون مدنهم.

وهكذا تنتظم هذه العوامل الثلاثة: التفكير، ومراجعة المصادر، واستشارة الناس، في إنتاج خطاب متقن، وحديث ينطوي على الكثير من عناصر التأثير والإيجابية، ويتجنّب الكثير من نقاط الضعف والسلبية.

■ ■ ■

الفصل الثالث

الأداء الاجتماعي رؤية وتقويم

عالم الدين بين التواضع وتضخّم الذات

عالم الدين كيف ينظر إلى نفسه؟

وكيف يرى الآخرين بالنسبة إلى ذاته؟

إن نظرة الإنسان إلى ذاته تحدّد رؤيته إلى الآخرين. وتشكل أساسًا وأرضية لنمط تعامله وعلاقته بهم.

ولأهمية العلاقة بين عالم الدين والمجتمع، وتأثير مستواها على الحالة الدينية، ولما يدور في بعض الأوساط من تساؤلات وملاحظات، حول واقع هذه العلاقة، من خلال بعض النماذج والممارسات، فسنعالج هذا الموضوع عبر زاوية مهمة من زواياه، هي النظرة التي يكّونها عالم الدين عن ذاته لجهة موقعيته من الآخرين، وموقعيتهم بالقياس إليه.

تضخّم الذات

حينما يمتلك إنسان نقاط قوة يتفوّق بها على من حوله، فقد تصيبه

حينئذٍ حالة من الإعجاب بذاته، فيكون تميّزه حاضرًا دائمًا في ذهنه، ويغفل عمّا لديه من ثغرات ونواقص، فتنمو وتزداد في شخصيته، كما يتجاهل نقاط قوة الآخرين، فلا يرى لهم قيمة واعتبارًا، بل ينظر إليهم دائمًا من خلال تفوقه وتميزه.

يذكر الأبشيهي في كتابه المستطرف بعض النماذج من المصابين بمرض انتفاخ الذات، فينقل عن جذيمة الأبرش: أنه كان لا ينادم أحدًا لتكبره، ويقول: إنما ينادمني الفرقدان، أي الشمس والقمر!!

أما ابن عوانة فقد قال لغلامه يومًا: اسقني ماءً. فقال الغلام: نعم. فقال ابن عوانة: إنما يقول نعم من يقدر أن يقول لا، اصفعوه، فصُفع!! ودعا يومًا فلاّحًا فكلمه، فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذارًا لمخاطبته!!

وقال المسرور بن هند لرجل: أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا مسرور بن هند. قال: ما أعرفك. قال فتعسًا ونكسًا لمن لم يعرف القمر[١].

هذا هو مرض انتفاخ الذات وتضخمها، وهو داء خطير، قد يحصل بسبب موقع السلطة والقوة، أو بامتلاك المال والثروة، أو بتحصيل مستوى علميّ ومكانة دينية اجتماعية.

لذلك، فعالم الدين معرّض لجرثومة هذا المرض، فإذا لم يراقب ذاته، ولم يجتهد لتهذيبها وتثبيت مناعتها، فقد يصبح ضحية لهذا المرض الخطير، الذي تنعكس آثاره وأضراره على سمعة الدين، والحالة الدينية

[١] محمد بن أحمد الأبشيهي. المستطرف في كل فن متسظرف، ج١، الطبعة الثانية ٢٠٠٠م، المطبعة العصرية، ص٢٢٣.

بشكل عام.

ويرى الشيخ أبو حامد الغزالي أن احتمال إصابة العالم بهذا المرض أكثر من غيره، يقول في (إحياء علوم الدين): «وما أسرع الكبر إلى العلماء! ولذلك قال ﷺ: «آفة العلم الخيلاء» فلا يلبث العالم أن يتعزّز بعزّة العلم، يستشعر في نفسه جمال العلم وكماله، ويستعظم نفسه، ويستحقر الناس، وينظر إليهم نظره إلى البهائم، ويستجهلهم، ويتوقع أن يبدؤوه بالسلام، فإن بدأه واحد منهم بالسلام، أو ردّ عليه بِبُشر، أو قام له، أو أجاب له دعوة، رأى ذلك صنيعة عنده، ويدًا عليه يلزمه شكرها، واعتقد أنه أكرمهم، وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله وأنه ينبغي أن يرقوا له، ويخدموه شكرًا له على صنيعه، بل الغالب أنهم يبرّونه فلا يبرّهم، ويزورونه فلا يزورهم، ويعودونه فلا يعودهم، ويستخدم من خالطه منهم، ويستسخره في حوائجه، فإن قصّر فيه استنكره كأنهم عبيده أو أجراؤه، وكأن تعليمه العلم صنيعة منه إليهم، ومعروف لديهم، واستحقاق حق عليهم...»[١].

أرضية الابتلاء

كيف يبتلى عالم الدين بهذا المرض الخطير؟

وكيف تتسلّل جرثومته إلى نفسه؟

إن عالم الدين كسائر البشر، مخلوق في هذه الدنيا للابتلاء والامتحان

---

[١] أبوحامد الغزالي. إحياء علوم الدين ج٣، الطبعة الأولى ١٩٩٢م (بيروت: دار الهادي)، ص٥٠٦.

من قبل اللَّه تعالى، والامتحان الإلهي أساليبه ووسائله متنوعة، فقد يكون عبر إغداق النعم والخيرات، أو الإصابة بالشدائد والأزمات، يقول تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[سورة الأنبياء، الآية: ٣٥].

وكما يكون المال أو المنصب، أو الجمال مادة للامتحان، فكذلك تكون نعمة العلم موردًا للامتحان، وعلى أساس طريقة التعامل مع هذه النعمة تتقرّر درجة العبد عند اللَّه تعالى.

ولكي تتضح صورة ومعالم هذا الامتحان الذي يمرّ به عالم الدين من هذه الزاوية، نشير إلى النقاط التالية:

أولًا: لا شك أن للعلم قدرًا وقيمة تؤهل من يحمله للاعتزاز به، ويتجلى فضل العلم عند صاحبه أكثر حينما يعيش في أوساط الجاهلين، فيراهم محتاجين إلى علمه، ويجد نفسه متميزًا عليهم بمعرفة ما يجهلون.

وقد يكون هذا من بواعث العُجْب وانتفاخ الذات عند بعض حملة العلم، وخاصة عند من لا يختلط بأنداده أو المتفوقين عليه من العلماء، فيعيش دائمًا الشعور بالتميّز في الوسط المحيط به.

أما من يلتقي المتقدمين عليه في العلم، أو المقارنين له في الفضل، فقد يساعده ذلك على التوازن في مشاعره وتقويمه لذاته.

ولعل البعض في عزوفه عن التلاقي مع الفضلاء من أبناء صنفه، واقتصاره على مخالطة أتباعه وطلابه ومريديه، إنما يريد العيش دائمًا

في حالة الشعور بالتميز الذاتي.

ثانيًا: هناك نصوص دينية كثيرة تتحدث عن فضل العالم ومكانته، حيث تقرّر الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[سورة الزمر، الآية: ٩]، تفوّق العالم في صيغة سؤال تقريري.

وجاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «فضل العالم على الشهيد درجة»[١]، وعنه ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم»[٢]، وعنه ﷺ: «طالب العلم تبسط له الملائكة أجنحتها رضى بما يطلب»[٣]، وعنه ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[٤].

وأحاديث وروايات عديدة كثيرة في تبيين فضل العالم ومكانته، هذه النصوص حينما يطّلع عليها ويقرؤها من أوتي نصيبًا من العلم، فقد تحدث له نوعًا من الغرور والعُجْب إذا اعتبر نفسه مصداقًا وموردًا لانطباقها.

ثالثًا: ما يحظى به عالم الدين من تقدير واحترام في أوساط جمهور الناس، الذي يتجلى في قيامهم له إذا دخل عليهم، وتقديمه في الأمور،

---

[١] الفضل بن الحسن الطبرسي. مجمع البيان ج٩، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٤١٨.
[٢] كنز العمال. حديث ٢٨٧٢٦.
[٣] المصدر نفسه. حديث ٢٨٧٤٧.
[٤] المصدر نفسه. حديث ٢٨٧٩٥.

وإيثاره بصدر المجلس، وتقبيل جبينه أو يده، كما هي العادة في بعض المجتمعات، والرجوع إلى رأيه في مختلف المسائل والشؤون، كل ذلك قد يعزّز مشاعر الاعتزاز بالذات، والإحساس بالتميّز.

بالطبع، فإن احترام أهل العلم وتقديرهم، أمر مطلوب، يدفع إليه العقل، ويأمر به الشرع؛ لأن ذلك مظهر لاحترام الدين والعلم، ومقدمة للاستجابة لإرشاد العلماء وتعليمهم. ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «من استقبل العلماء فقد استقبلني، ومن زار العلماء فقد زارني، ومن جالس العلماء فقد جالسني، ومن جالسني فكأنما جالس ربي»[١]، وعنه ﷺ: «أكرموا العلماء فإنهم ورثة الأنبياء فمن أكرمهم فقد أكرم اللّه ورسوله»[٢].

التربية الروحية الأخلاقية

كما قد يكون المال والثروة سببًا للانحراف والطغيان ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[سورة العلق، الآيتان: ٦-٧]. وقد تكون السلطة دافعًا للظلم والاستبداد، كذلك قد يصبح العلم باعثًا للغرور والتكبر، لذلك ورد عن السلف: «إن للعلم طغيانًا كطغيان المال»[٣].

ومن أجل تحقيق التوازن النفسي عند الإنسان، وللسيطرة على جموح مشاعره وأحاسيسه الذاتية، لا بدّ من التربية الروحية الأخلاقية.

[١] كنز العمال. حديث ٢٨٨٨٣.
[٢] المصدر نفسه. حديث ٢٨٧٦٤.
[٣] إحياء علوم الدين. ج٣، ص٥٢٧.

وعالم الدين إذا توفر على رصيد كافٍ من تزكية النفس، يكون لديه مناعة وحصانة من مرض العُجْب والغرور، وسائر الأدواء الأخلاقية. لذلك يقدّم القرآن الكريم التزكية على التعليم لأهميتها وأولويتها، بقول تعالى: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[سورة الجمعة، الآية: ٢].

وتؤكّد النصوص الدينية على ضرورة تزكية النفس أولًا، خاصة بالنسبة لعالم الدين، يقول الإمام علي ﷺ: «من نصّب نفسه للناس إمامًا فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلّم نفسه ومؤدبها أحقّ بالإجلال من معلّم الناس ومؤدبهم»[١]، ويقول ﷺ: «كيف يصلح غيره من لا يصلح نفسه»[٢].

إن التربية الروحية تجعل نظرة الإنسان إلى نفسه أكثر واقعية وموضوعية، فكلما تقدّم علميًّا، أدرك عمق المعرفة، وسعة آفاق العلم، وأدرك أن ما ناله من العلم ليس سوى نزر قليل ومقدار ضئيل، فيسدّ بذلك منافذ العُجْب والغرور إلى نفسه، يقول اللّه تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا﴾[سورة الإسراء، الآية: ٨٥].

وروي عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «من قال: أنا عالم فهو جاهل»[٣]. وفي وصيّته لابنه الحسن ﷺ يقول الإمام علي ﷺ: «فإن العالم من عرف أن

---

[١] نهج البلاغة، حكمة ٧٣.
[٢] عبدالواحد الآمدي التميمي. غرر الحكم ودرر الكلم، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).
[٣] بحار الأنوار، ج٢، ص ١١٠.

ما يعلم فيما لا يعلم قليل فعدَّ نفسه بذلك جاهلًا»[١].

ينقل في سيرة العالم الفيلسوف الفقيه المعروف الملا هادي السبزواري ١٢١٢-١٢٨٩هـ صاحب المنظومة الفلسفية التي تدرّس في الحوزات العلمية، أنه ذهب إلى كرمان دون أن يعرفه أحد، ليبقى فيها مدة من الزمن فدخل المدرسة العلمية هناك، وطلب من المتوليّ للمدرسة غرفة، ولما لم يكن المتولي يعرفه سأله: هل أنت من العلماء؟ فأجابه: كلاّ. قال المتولي: إن الغرف مخصوصة لطلبة العلم، ولكنك تستطيع أن تبقى في غرفة خادم المدرسة لتساعده في أعمال الخدمة، فوافق على ذلك، وبقي كذلك حتى عرفوا شخصيته[٢].

كما أن العالم المحدّث الكبير الشيخ عباس القمي ١٢٩٤-١٣٥٩هـ صاحب المؤلفات الكثيرة المشهورة، لما ألف كتابه الفوائد الرضوية في تراجم علماء الإمامية ووصل إلى اسمه، كتب ما يلي: «حيث أن هذا الكتاب الشريف في بيان أحوال العلماء، لم أجد المناسب أن أترجم لنفسي إذ أني أحقر وأقل من أن أضع نفسي في عدادهم، ولذا أصرف النظر عن ترجمتي مكتفيًا بذكر مؤلفاتي»[٣].

وكان أحد الفقهاء المراجع يكتب عند توقيعه: تراب أقدام العلماء،

---

[١] بحار الأنوار. ج ٧٤، ص٢٢١.

[٢] هيئة محمد الأمين. الأخلاق والآداب الإسلامية، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، (الكويت)، ص٢٣٥.

[٣] الشيخ رضي مختاري. سيماء الصالحين، طبعة ١٩٩٢م، (بيروت: دار البلاغة)، ص٢٦٠.

ومتداول عند كثير من العلماء أن يكتب عند توقيعه الأقل أو الأحقر. هكذا يستكثر العالم المهذّب لنفسه أن يعدّ نفسه عالمًا، فضلًا عن أن يسيطر عليه العُجْب والغرور، أو يتباهى بعلمه.

العلم مسؤولية وتكليف

دراسة الإنسان للعلوم الدينية يفترض أن تجعله أكثر إدراكًا لعظمة اللَّه تعالى، وشعورًا بالالتزام والمسؤولية بين يديه سبحانه، وما يناله من العلم يكون حجة عليه أمام اللَّه تعالى، لذلك يتصف العلماء بشدّة الخوف والخشية من اللَّه، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[سورة فاطر، الآية: ٢٨].

فالعلم الديني مسؤولية وتكليف قبل أن يكون امتيازًا وتشريفًا، وعلى حملة العلم أن يضعوا نصب أعينهم التحذيرات الإلهية الموجهة إليهم، عبر آيات الذكر الحكيم، وأحاديث النبي ﷺ وعترته الطاهرة ﭺ، لتكبح جماح النوازع الذاتية في نفوسهم، وليخضعوا أنفسهم دائمًا وأبدًا للمحاسبة والمراقبة. وليتذكروا أن وضعهم أخطر من سائر الناس، وأن الناس العاديين أخفّ منهم أعباءً، وأيسر حسابًا بين يدي اللَّه تعالى.

هناك عدد من الأحاديث الشريفة تحذّر من توظيف العلم لنيل الشهرة والبروز الاجتماعي، جاء في الحديث عنه ﷺ: «من طلب العلم ليماري به السفهاء، أو يكاثر به العلماء، أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار»[١].

---

[١] كنز العمال. حديث ٢٩٠٥٧.

ويشير عدد من الأحاديث إلى عظيم حساب وعذاب حامل العلم إن لم يكن ملتزمًا بمسؤوليته، ورد عنه ﷺ أنه قال: «أتيت ليلة أسرى بي على قوم يقترض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: خطباء من أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون ويقرؤون كتاب اللّه ولا يعملون به»[١]، وعنه ﷺ: «إن أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه اللّه بعلمه»[٢]، وعنه ﷺ: «الزبانية أسرع إلى فسقة حملة القرآن منهم إلى عبدة الأوثان، فيقولون: يبدأ بنا قبل عبدة الأوثان؟! فيقال لهم: ليس من يعلم كمن لا يعلم»[٣].

وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إنه يغفر للجاهل سبعون ذنبًا قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد»[٤].

هذه النصوص وأمثالها تذكّر عالم الدين بالمسؤولية والالتزام تجاه علمه، وتصرفه عن العُجْب والغرور، فلا قيمة للعلم من دون تقوى، ولا فائدة فيه إن لم يصحبه سلوك صحيح.

التواضع ثمرة العلم

تضخّم الذات يوحي لصاحبه أنه أفضل من سائر الناس بما نال من العلم، وأن على الناس أن يظهروا له الاحترام والتقدير، وأن يتشرفوا ويُسعدوا بخدمته، وأن يقبلوا منه كل ما يقول بلا نقاش ولا اعتراض،

---

[١] كنز العمال. حديث ٢٩٠٢٦.
[٢] المصدر نفسه. حديث ٢٩٠٩٩.
[٣] المصدر نفسه. حديث ٢٩٠٠٥.
[٤] بحار الأنوار. ج٢، ص٢٧.

فهو عالم يمثّل الشرع وينطق باسمه، وهم عوام جهال، وظيفتهم الانقياد والطاعة، وقد يرى نفسه بوابة رضا اللّه وغفرانه، فمن لا يوافق رأيه، ويخضع لإرادته، مطرود من رحمة اللّه، وذلك شبيه بما ادّعاه رجال الكنيسة في العصور الوسطى من بيع صكوك الغفران على الناس.

إن هذا التصور وهذا السلوك مناقض لجوهر العلم، ومخالف لمضامين الدين وتعاليمه. ذلك أن اللّه تعالى يمقت التكبر ويكره المتكبرين، يقول تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[سورة الزمر، الآية: ٦٠]. وعنه ﷺ: «أمقت الناس المتكبر»[١]، ويأمر اللّه تعالى بالتواضع ويحب المتواضعين، يقول تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[سورة المائدة، الآية: ٥٤]. ويقول الإمام علي عليه السلام: «عليك بالتواضع فإنه من أعظم العبادة»[٢].

والعلم الحقيقي يدفع صاحبه إلى التواضع للناس، وكلما ارتفع مستواه العلمي، انخفضت نفسه تواضعًا ورقة، جاء في الحديث عنه ﷺ: «من طلب العلم للّه لم يصب منه بابًا إلا ازداد في نفسه ذلًا، وفي الناس تواضعًا، وللّه خوفًا، وفي الدين اجتهادًا، وذلك الذي ينتفع بعلمه»[٣].

أما التعالي والتكبر فهو سمة أدعياء العلم، الذين يسخّرونه لإشباع نزواتهم الذاتية، روي عنه ﷺ: «من طلب العلم للدنيا، والمنزلة عند الناس،

---

[١] بحار الأنوار. ج٧٠، ص٢٣١.
[٢] المصدر نفسه. ج٧٢، ص١١٩.
[٣] المصدر نفسه. ج٢، ص٣٤.

والحظوة عند السلطان، لم يصب منه بابًا إلا ازداد في نفسه عظمة، وعلى الناس استطالة، وباللّٰه اغترارًا، ومن الدين جفاءً، فذلك الذي لا ينتفع بالعلم»[١].

وهكذا فإن المعرفة الصادقة تربي الإنسان على التواضع، وتنمي في نفسه احترام الآخرين، يقول الإمام علي عليه السلام: «التواضع ثمرة العلم»[٢]، ويقول عليه السلام: «وإنه لا ينبغي لمن عرف عظمة اللّٰه أن يتعظّم»[٣].

وأخيرًا، نضرع إلى اللّٰه تعالى مع الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق: حيث يقول: اللّٰهم صلِّ على محمد وآله ولا ترفعني في الناس درجة إلّا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزًا ظاهرًا إلّا أحدثت لي ذلّة باطنة عند نفسي بقدرها. آمين رب العالمين.

■■■

---

[١] بحار الأنوار. ج٢، ص٣٥.
[٢] غرر الحكم ودرر الكلم.
[٣] نهج البلاغة. خطبة ١٤٧.

ثمرة العلم التواضع

من يشعر بالتفوق والتميّز على الآخرين لامتلاكه نقطة قوة معينة، عليه ـ من أجل ألّا يدفعه شعوره هذا للتعالي والعجب والتكبر ـ أن يخضع هذا الإحساس للبحث والتساؤل: هل هو بالفعل مميّز ومتفوّق على غيره؟

إن نقاط القوة والتقدم متفاوتة بين الناس، وقلّ أن تجتمع كل عوامل التفوق في شخصية واحدة، فقد يتفوق شخص في العلم، وآخر في القدرة الإدارية، وثالث في امتلاك الثروة، ورابع في نيل القوة والسلطة، وخامس في الجمال واللياقة الجسمية، وسادس في الحسب والنسب.. وهكذا..

وبالتالي فإن على الإنسان أن يحسب حسابًا لنقاط قوة الآخرين، ولا يتعالى على أحد، ما دام هو لا يحب أن يتكبر أحد عليه.

وكمسلمين فنحن نعتقد بأن القرب من اللّه تعالى، والنجاة يوم القيامة هو التفوق الأكبر، والنجاح الأهم، وهل يضمن إنسان لنفسه ذلك؟ هل

يجزم عالم الدين مثلًا بأنه أقرب إلى اللَّه، وأحقّ برضاه وجنته من هؤلاء العاديين الذين قد يشعر بأفضليته عليهم؟

جاء في حديث عن رسول اللَّه ﷺ: «ربّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على اللَّه لأبرّه»[١].

يقول الإمام علي عليه السلام: «الغنى والفقر بعد العرض على اللَّه»[٢].

إن المعصومين الذين اصطفاهم اللَّه تعالى من عباده، ورغم أنهم يمتلكون التفوق الشامل، والتميّز الكامل على من سواهم، دنيًا وآخرة، إلّا أنهم يتصفون بأعلى درجات التواضع مع الناس، ليس في قلوبهم ذرّة من العُجْب، ولا تظهر منهم بادرة تكبرٍ أو تعالٍ على أحد.

فنبيّنا محمد ﷺ وهو سيد الخلق وأكرمهم على اللَّه تعالى، والذي حاز التفوق في جميع المجالات، لو قرأنا سيرته العطرة لوجدناه المثل الأعلى في التواضع والبساطة مع الناس، وعلى هديه سار الأئمة الطاهرون من أهل بيته، والصحابة الأخيار، ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ﴾[سورة الأنعام، الآية: ٩٠].

تواضع الأولياء

إن التواضع سرٌّ من أسرار عظمة أولياء اللَّه تعالى، وهو ناتج من التربية الإلهية، حيث يؤدّب اللَّه تعالى أنبياءه ويوجههم إلى هذا الخلق العظيم،

[١] كنز العمال. حديث ٥٩٥٣.
[٢] نهج البلاغة. قصار الحكم ٤٥٢.

يقول اللّٰه تعالى مخاطبًا نبيه محمد ﷺ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الحجر، الآية: ٨٨]. وفي آية أخرى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[سورة الشعراء، الآية: ٢١٥]. وخفض الجناح تمثيل للرفق والتواضع بحال الطائر إذا أراد أن يهبط إلى الأرض، خفض جناحيه يريد الدنوّ، أو إذا تهيأ لحضن فراخه، فالطيور حينما تريد إظهار حنانها لفراخها تجعلها تحت أجنحتها بعد خفضها.

وممارسة التواضع عند الأنبياء والأولياء عمل عبادي يتقربون به إلى اللّٰه تعالى يقول ﷺ: «إن اللّٰه يحبّ المتواضعين ويُبغض المتكبرين»[١]، وقال ﷺ يومًا لبعض أصحابه: «ما لي لا أرى عليكم حلاوة العبادة؟ قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال ﷺ: التواضع»[٢]، وقال علي عليه السلام: «عليك بالتواضع فإنه من أعظم العبادة»[٣].

وبالتواضع يجتذب الأنبياء قلوب الناس لدعوتهم الإلهية، حيث يحبّ الناس من يتواضع لهم، بينما ينفرون ممن يتعالى ويتكبرّ عليهم. يقول الإمام علي عليه السلام: «ثمرة التواضع المحبة وثمرة الكبر المسبّة»[٤].

ويقرّر القرآن هذه الحقيقة مؤكدًا أن أخلاق رسول اللّٰه ﷺ هي التي استقطبت الناس للدين، ولولا رفقه ولينه معهم لما استجابوا لدعوته، يقول

[١] كنز العمال. حديث ٥٧٣٤.

[٢] محمد مهدي النراقي. جامع السعادات، ج١، الطبعة السابعة ١٤٢٢هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٣٩٤.

[٣] بحار الأنوار. ج٧٢، ص١١٩.

[٤] غرر الحكم ودرر الكلم.

اللَّه تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٥٩].

وإذا كان التواضع مطلوبًا من كل أحد فإن عالم الدين هو الأولى والأجدر بممارسة هذا الخلق الكريم، لانفتاحه على تعاليم الإسلام، ولتصدّيه للدعوة والإرشاد، ولموقعيته الدينية في أنظار الناس، حيث تتشكل النظرة عن الدين عند الكثيرين من خلال شخصيته وسلوكه، وبالتواضع والأخلاق الكريمة، يقدم عن الدين صورة جميلة وانطباعًا حسنًا، تجتذب النفوس إلى الدين، أما إذا كان مبتليًا بداء العُجْب وتضخم الذات، فسيفشل في كسب القلوب، ويقدم نموذجًا مشوهًا للحالة الدينية.

ونقتبس من مدرسة الأخلاق النبوية بعض معالم خلق التواضع، لتكون نبراسًا للدعاة إلى اللَّه، والمهتمين بالشأن الديني والاجتماعي.

عدم الاهتمام بالتشريفات

تنشأ في كل مجتمع أعراف وتقاليد لإظهار الاحترام والتقدير للشخصيات البارزة، ولموقعية عالم الدين في المجتمع الإسلامي، فإن الناس يبدون له الكثير من مظاهر الإجلال والتعظيم، فيقومون لاحترامه إذا دخل مجلسًا، ويخصّونه بصدر المجلس ويبادرونه بالسلام والتحية، ويقبّلون رأسه أو يده، ويقدِّمونه عليهم في مختلف المواقع والمواقف... إلى ما هنالك من مراسيم وتقاليد متنوعة، وقد تتفاوت من مجتمع إلى آخر.

بالطبع فإن احترام عالم الدين وتقديره أمر مطلوب، ومرغّب إليه شرعًا، كما تدل على ذلك النصوص الواردة، لكن عالم الدين نفسه ينبغي ألّا يعطي لذلك اعتبارًا كبيرًا في نفسه، فتصبح تلك التشريفات وكأنها واجب على الناس نحوه، وأنها حق طبيعي له، ينزعج إذا ما قصّر أحد في أدائها تجاهه، فلو دخل مجلسًا ولم يقم له بعض الحاضرين، أو لم يفسحوا له صدر المجلس، أو لم يقدموه أو ما أشبه، فإن ذلك يجب ألّا يترك أثرًا في نفسه. وبعبارة أخرى، فإنه لا يبحث عن تلك التشريفات، ولا يهتم بها.

إن القيام عند قدوم المؤمن، وخاصة العالم، أو من كان من سلالة النبي ﷺ، أمر مستحب، فقد ورد عن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي عبد اللّه الصادق ﵇ : من قام من مجلسه تعظيمًا لرجل؟ فقال﵇: مكروه إلّا لرجل في الدين[١].

وقد ورد في السيرة النبوية أنه ﷺ كان يقوم احترامًا لبعض القادمين عليه، إلّا أنه ﷺ كان يكره قيام الناس له لشدة تواضعه.

جاء في الحديث عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «من أحبّ أن يمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار»[٢]، وورد هذا الحديث في سنن أبي داوود وفي وسائل الشيعة ومستدركها وبحار الأنوار.

وعن أبي أمامة قال: خرج علينا رسول اللّه ﷺ متوكئًا على عصا، فقمنا

[١] بحار الأنوار. ج٧٢، ص٤٦٦.

[٢] أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني. سنن أبي داوود،، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، (بيروت: دار الجنان ـ مؤسسة الكتب الثقافية)، حديث ٥٢٢٩.

إليه، فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظّم بعضها بعضًا»[١].

وعن زيد الزرّاد في أصله قال: سمعت أبا عبد اللّه الصادق ﷺ يقول: إن رسول اللّه ﷺ خرج ذات يوم من بعض حجراته إذا قوم من أصحابه مجتمعون، فلما بصروا برسول اللّه ﷺ قاموا. قال لهم: اقعدوا ولا تفعلوا كما يفعل الأعاجم تعظيما[٢].

وعن أنس بن مالك قال: لم يكن شخص أحبّ إليهم من رسول اللّه ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا إليه لما يعرفون من كراهيته لذلك[٣].

وقال أبو الدرداء: كان رسول اللّه ﷺ في بعض الأوقات يمشي مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم، ويمشي في غمارهم[٤].

وعن أبي ذرٍّ الغفاري قال: رأيت سلمان وبلالًا يُقبلان إلى النبي ﷺ إذ انكبّ سلمان على قدم رسول اللّه ﷺ يقبّلها، فزجره النبي ﷺ من ذلك، ثم قال له: يا سلمان لا تصنع بي ما تصنع الأعاجم بملوكها أنا عبد من عبيد اللّه[٥].

ونقل الشريف الرضي في نهج البلاغة أن الإمام عليًا ﷺ عند مسيره إلى الشام مرّ بالأنبار فترجّل له دهاقينها أي زعماء الفلاحين واشتدّوا بين يديه،

---

[١] سنن ابي داوود. حديث ٥٢٣٠.
[٢] الشيخ علي النمازي. مستدرك سفينة البحار، ج٨، طبعة ١٤١٨هـ، (قم: مؤسسة النشر الإسلامي)، ص٦٣٢.
[٣] بحار الأنوار. ج١٦، ص٢٢٩.
[٤] المصدر نفسه. ج٧٠، ص٢٠٦.
[٥] المصدر نفسه. ج٧٣، ص٦٣.

فقال ﷺ: ما هذا الذي صنعتموه؟ فقالوا: خُلقٌ منا نعظّم به أمراءنا. فقال: واللّه ما ينتفع بهذا أمراؤكم! وإنكم لتشقّون على أنفسكم، وتشقون به في آخرتكم[١].

وعن هشام بن سالم عن الإمام الصادق ﷺ قال: خرج أمير المؤمنين ﷺ على أصحابه وهو راكب، فمشوا خلفه، فالتفت إليهم فقال: لكم حاجة؟ فقالوا لا يا أمير المؤمنين، ولكنا نحبّ أن نمشي معك، فقال لهم: انصرفوا فإن مشي الماشي مع الراكب مفسدة للراكب ومذلّة للماشي. قال: وركب مرة أخرى، فمشوا خلفه، فقال: انصرفوا فإن خفق النعال خلف أعقاب الرجال مفسدة لقلوب النوكى.[٢] أي الحمقى .

وحول الجلوس في صدر المجلس، وردت أحاديث كثيرة تشير إلى أن الرغبة في ذلك تكشف عن درجة من العُجْب والتعالي، وأن خلق التواضع يقتضي العزوف عن هذا الموقع، فعن رسول اللّه ﷺ: «إن من التواضع للّه الرضا بالدُّون من شرف المجلس»[٣].

وعن الإمام الصادق ﷺ: «التواضع أن ترضى من المجلس بدون شرفك، وأن تسلّم على من لاقيت، وأن تترك المراء وإن كنت محقًّا، ورأس الخير التواضع»[٤].

---

[١] نهج البلاغة. قصار الحكم ٣٧.
[٢] بحار الأنوار. ج٤١، ص٥٥.
[٣] كنز العمال. حديث ٥٧٢٤.
[٤] بحار الأنوار. ج٧٢، ص١٢٣.

وروي عن أبي عبد اللَّه الصادق ﷺ قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا دخل منزلًا قعد في أدنى المجلس حين يدخل، وأنه ﷺ قال: إذا أتى أحدكم مجلسًا فليجلس حيث ما انتهى مجلسه[١].

هكذا فإنه يستحب للناس أن يبدوا الاحترام لعالم الدين، لكن عالم الدين ينبغي له ألّا يهتم بهذه المظاهر، ولا يبحث عنها أو يغضب من أجلها.

احترام الناس وخدمتهم

يدرك عالم الدين أكثر من غيره موقعية الناس وكرامتهم في التعاليم الإسلامية، فقد منح اللَّه تعالى التكريم لبني البشر بما هم بشر، وبغض النظر عن الامتيازات الفاضلة الأخرى التي ترفع درجة التكريم لمن توفرت فيه، لكن أصل التكريم محفوظ لجميع الناس، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[سورة الإسراء، الآية: ٧٠].

فالناس العاديون وإن لم يتوفر لهم مستوى من العلم، لكنهم بشر لهم كرامتهم واحترامهم، فلا يصحّ للعالم أن يستهين بأحدٍ من الناس؛ لأنهم عوام جهّال.

إن اللَّه تعالى يحبّ خلقه، ويحبّ من يحترمهم وينفعهم كما ورد في حديث قدسيّ رواه الإمام الصادق ﷺ قال: قال اللَّه عز وجل: «الخلق

---

[١] بحار الأنوار. ج١٦، ص٢٤٠.

عيالي فأحبّهم إليَّ ألطفهم بهم وأسعاهم في حوائجهم»[١].

وعنه ﷺ: «لا يزرأن أحدكم بأحدٍ من خلق اللّه فإنه لا يدري أيهم ولي اللّه»[٢]. وعنه ﷺ: «الخلق عيال اللّه فأحبّ الناس إلى اللّه من أحسن إلى عياله»[٣].

لذلك كان رسول اللّه ﷺ والأئمة الهداة ﷺ يحرصون على إظهار أعلى درجات الاحترام والأدب تجاه أفراد الناس، فكان رسول اللّه ﷺ يلقي التحية والسلام حتى على الأطفال الصغار، ويعود المرضى، ويمشي في تشييع الجنازة، ويتفقّد الغائب من أصحابه، ويجيب الدعوة...

وقد ورد أن نبي اللّه عيسى بن مريم ﷺ قال: يا معشر الحواريين، لي إليكم حاجة فاقضوها لي. قالوا: قضيت حاجتك يا روح اللّه، فقام فغسل أقدامهم. فقالوا: كنا نحن أحقّ بهذا يا روح اللّه. فقال: إن أحقّ الناس بالخدمة العالم، إنما تواضعت هكذا لكيما تتواضعوا بعدي في الناس كتواضعي لكم[٤].

وكان رسول اللّه ﷺ يكره أن يستأثر بالراحة عن أصحابه، بل كان يشاركهم العمل والخدمة، كعمله معهم في بناء مسجد المدينة، ورآه أسيد بن حضير يحمل حجرًا على بطنه، فقال: يا رسول اللّه، أعطني أحمل عنك.

---

[١] الكافي. ج٢، ص١٩٩.
[٢] بحار الأنوار. ج٧٢، ص١٤٧.
[٣] كنز العمال. حديث ١٦١٧١.
[٤] بحار الأنوار. ج٢، ص٦٢.

قال ﷺ: لا. اذهب فاحمل غيره[١].

وفي الطريق إلى بدر كان رسول اللّه ﷺ وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد يتعقّبون بعيرًا واحدًا، يركب كل منهم مدة ثم يتركه للآخر، فأراد علي ومرثد أن يتنازلا عن حصتهما في ركوب البعير له، وقالا: نحن نمشي عنك. فقال لهم ﷺ: «ما أنتما بأقوى مني على المشي ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر». وأبى إلّا أن تكون حصته في ركوب البعير كواحد منهما.

وفي حفر الخندق كان ﷺ يضرب بالمعول، ويحمل التراب على ظهره كسائر المسلمين...

ورد في سيرة الإمام علي عليه السلام أنه «حينما كان حاكمًا على البلاد الإسلامية، وأميرًا للمؤمنين ورد عليه أب وابن، فقام إليهما وأكرمهما وأجلسهما في صدر المجلس وجلس بين أيديهما، ثم أمر بطعام فاحضر فأكلا منه، ثم جاء قنبر بطشت وإبريق وخشب ومنديل لليبس، وجاء ليصبّ على يد الرجل فقام أمير المؤمنين عليه السلام وأخذ الإبريق ليصبّ على يد الرجل.

قال الإمام عليه السلام: اقعد واغسل، فإن اللّه عزّ وجلّ يراك وأخوك الذي لا يتميز منك ولا يتفضل عليك، يخدمك، يريد بذلك في خدمته في الجنة، مثل أضعاف أهل الدنيا وعلى حسب ذلك في مماليكه فيها.

فقعد الرجل، فقال له الإمام علي عليه السلام: أقسمت بعظيم حقّي الذي عرفته لما غسلت مطمئنًا كما كنت تغسل لو كان الصابّ عليك قنبر.

[١] بحار الأنوار. ج١٩، ص١١٢.

ففعل الرجل ذلك، فلما فرغ ناول الإبريق إلى ولده محمد بن الحنفية، وقال: يا بني لو كان هذا الابن حضرني دون أبيه لصببت على يده، ولكن اللّه عزّ وجلّ يأبى أن يسوي بين ابن وأبيه إذا جمعهما مكان، ولكن صبَّ الأب على الأب فليصبّ الابن على يد الابن»[١].

وكان علي عليه السلام يمشي في الأسواق وحده يرشد الضال، ويعين الضعيف، وربما حمل عنه ثقله، وربما جلس في دكان صاحبه ميثم التمار يبيع عنه التمر.

ويتحدث الإمام الصادق عليه السلام عن جدّه الإمام علي بن الحسين عليه السلام فيقول: كان علي بن الحسين لا يسافر إلّا مع رفقة لا يعرفونه، ويشترط عليهم أن يكون من خدّام الرفقة فيما يحتاجون إليه، فسافر مرة مع قوم، فرآه رجل فعرفه، فقال لهم: أتدرون من هذا؟ قالوا: لا. قال: هذا علي بن الحسين، فوثبوا إليه يقبلونه ويعتذرون إليه، قائلين: ما الذي حملك على هذا؟ فقال: إني كنت سافرت مرة مع قوم يعرفونني فأعطوني برسول اللّه صلى الله عليه وآله ما لا أستحق، فأخاف أن تعطوني مثل ذلك، فصار كتمان أمري أحبّ إليّ[٢].

وهكذا يجب أن يكون عالم الدين حريصًا على احترام الناس، ساعيًا في خدمتهم، متواصلًا معهم، لا يقبل باستخدامهم لأموره الشخصية، ولا يستأثر بالراحة عليهم، بل يشترك معهم في الخدمة والعمل.

---

[١] السيد هادي المدرسي. أخلاقيات أمير المؤمنين عليه السلام، الطبعة الأولى ١٤١١هـ (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص١١٦.

[٢] وسائل الشيعة، حديث ١٥١٧٧.

أما القول بأن العالم كالكعبة يُزار ولا يزور، ويُخدم ولا يَخدم، فذلك ما تخالفه سيرة الرسول ﷺ والأئمة الهداة ﷺ، وما تنفيه الأحاديث والنصوص الدينية.

الاستشارة واحترام الرأي

ما يتمتع به عالم الدين من مستوى في المعارف الدينية، مهما كان متقدمًا عاليًا، لا يغنيه عن آراء ذوي الخبرة والتجربة من الناس، في المجالات المختلفة، فهو يعرف الأحكام الشرعية، لكن تشخيص الموضوعات، وموارد التطبيق، ومعرفة الظروف، وأساليب التحرك والعمل، كل ذلك ينفعه فيه استشارة الآخرين، والاستفادة من آرائهم.

إن الاستبداد بالرأي، واحتكار القرار، في ما يرتبط بالشؤون العامة ومصلحة الناس، وفي القضايا الدينية والاجتماعية، أسلوب خطأ.

فللناس عقول، ولهم تجارب وخبرات، والاستشارة تعني الاستفادة من قدراتهم، وأيضًا فهي تشركهم في تحمّل المسؤولية، وتجعلهم أكثر ثقة وتفاعلًا.

لذلك يأمر اللّه تعالى نبيه محمدًا ﷺ على عظمته ومكانته أن يشاور من حوله، يقول تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٥٩]. وقد ورد أنه ﷺ كان أكثر الناس استشارة لأصحابه.

واستشار الإمام الصادق ﵇ مرة أحد أصحابه فقال له: أصلحك اللّه

مثلي يشير على مثلك؟! فأجابه الإمام ﷺ: نعم، إذا استشير بك[١].

ويتحدث الإمام علي الرضا ﷺ عن أبيه الإمام موسى الكاظم ﷺ فيقول: كان عقله لا يوازن به العقول، وربما شاور الأسود من سودانه، فقيل له: تشاور مثل هذا؟! فقال: إن شاء اللّه تبارك وتعالى، ربما فتح على لسانه[٢].

■■■

[١] بحار الأنوار. ج٧٢، ص١٠١.
[٢] المصدر نفسه.

زكاة العلم

الزكاة لغة: النمو والزيادة. يقال: زكا الزرع: إذا نما وزاد، وزكت النفقة: إذا بورك فيها. وقد تطلق بمعنى الطهارة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾[سورة الشمس، الآية:٩]. أي طهّرها عن الأدناس. ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾[سورة الأعلى، الآية:١٤]. جاء في لسان العرب: «وأصل الزكاة في اللغة: الطهارة والنماء والبركة، وفي حديث الباقر ﷺ أنه قال: «زكاة الأرض يُبسها، يريد طهارتها من النجاسة كالبول وأشباهه بأن يجفّ ويذهب أثره» [١].

ومن فلسفة الزكاة في التشريع الإسلامي يظهر أن المعنيين قد أخذا فيها بعين الاعتبار، فإيتاء زكاة المال يطهّر نفس الإنسان من الأنانية والبخل والحرص، لشعور الإنسان بأن المال الذي يحصل عليه ملك له وحده، وتحت سيطرته وتصرفه هو فقط، وإعطاؤه للزكاة تشذيب وتعديل لهذه المشاعر والأحاسيس، لذلك يقول تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً

[١] لسان العرب، ج٣، ص٣٦.

تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[سورة التوبة، الآية:١٠٣].

في الوقت ذاته فإن إخراج الزكاة ينمي المال ويزيده، ببركة اللّه وفضله، وحتى وفق المنظور الاجتماعي والاقتصادي فإن رعاية الفقراء يوفّر الأمن الاجتماعي، حيث يمنع من تشكّل حالات الإجرام والعدوان الناتجة من الفقر والحرمان، كما أن تدوير الثروة في المجتمع، يحرّك الوضع الاقتصادي، ومردوده سيكون على أصحاب رؤوس الأموال أيضًا. من هنا نرى الدول الكبرى في العالم تقدم شيئًا من الدعم والمساعدة للدول الفقيرة المتخلفة، التي إذا تحرّك اقتصادها فستستهلك من إنتاج تلك الدول المتقدمة.

والنصوص الدينية تشير إلى دور الزكاة والصدقة في تنمية المال والثروة كما ورد عن رسول اللّه ﷺ: «إذا أردت أن يثري اللّه مالك فزّكه»[١] وقول الإمام محمد الباقر ﷺ: «الزكاة تزيد في الرزق»[٢].

لكل شيء زكاة

ليس امتلاك الإنسان للثروة فقط هو الذي يشعره بالأنانية والبخل، بل إن كل إمكانية يتوفر عليها الإنسان تسبب له هذا الشعور، وتشيعه في نفسه وسلوكه، لذلك فهو في حاجة لترشيد مشاعره وتصرفاته تجاه كل ما يتحصّل عليه من إمكانات ومكاسب في هذه الحياة، ليتجه لتوظيفها في خدمة المصلحة العامة.

---

[١] بحار الأنوار. ج٩٣، ص٢٣.
[٢] المصدر نفسه. ص١٤.

من هنا تشير النصوص الدينية إلى أن لكل شيء زكاة، فكما يجب على الإنسان أن يعطي حصة من ماله ـ حسب الضوابط الشرعية ـ لصالح الفقراء والخدمات العامة، فإن عليه أن يوظف شيئًا من قدراته وإمكاناته المختلفة لصالح الشأن العام وخدمة أبناء جنسه ومجتمعه. يقول الإمام علي ﷺ: «لكل شيء زكاة»[١].

والعلم والمعرفة من أكبر الإمكانات وأهم المكاسب، وإذا ما توفّر إنسان على مستوى وقدر من العلم، فقد يأخذه الغرور والتعالي على من حوله، وتسيطر عليه الأنانية فيحتكر العلم والمعرفة لنفسه، ويبخل بها على الآخرين، إلّا في حدود خدمة ذاته ومصالحه. لذا جاءت التعاليم الدينية تؤكد على مسؤولية العالم تجاه الناس، وتوجب عليه بذل علمه للمحتاجين إليه والمنتفعين به.

وبذل العلم هي زكاته. روي عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «زكاة العلم تعليمه من لا يعلمه»[٢].

وعن الإمام علي ﷺ: «زكاة العلم بذله لمستحقه»[٣].

إن بذل العلم للناس يزكّي نفس العالم ويطهّرها من الأنانية والبخل، ويؤكد لديه الشعور بالمسؤولية، فالعلم ليس تشريفًا فقط وإنما هو مسؤولية وتكليف.

---

[١] غرر الحكم ودرر الكلم. حرف اللام.
[٢] المصدر نفسه. ج٢، ص٢٥.
[٣] غرر الحكم ودرر الكلم. حرف الزاء.

من ناحية أخرى، فإن بذل العلم يزيده وينميه، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «والعلم يزكو على الإنفاق»[١] أي يزيد وينمو.

ذلك أن إبداء المعلومات يرسخّها في ذاكرة الإنسان، فالفكرة أو المعلومة التي تطرحها عدة مرات تصبح أكثر حضورًا في ذهنك، وأبعد عن الغفلة والنسيان.

وطرح الأفكار والآراء أمام الآخرين يعطي الفرصة والمجال لتمحيصها ونقدها ومناقشتها، فقد ينطوي الإنسان على نظرية ما معتقدًا صحتها وصوابها، فإذا ما طرحها للتداول العلمي والفكري بين الناس، فإنها قد تثير شيئًا من التساؤل والأخذ والرد، يدعو صاحبها لإعادة النظر فيها، بمعالجة الثغرات ونقاط الضعف في النظرية، مما يعمقها ويقوّيها، أو بالتراجع عنها إذا انكشف له بطلانها، وذلك مكسب مهم وفائدة كبيرة، لا تحصل بانطواء العالم على علمه، وإنما ببذل العلم ونشره.

من ناحية أخرى، فإن بذل العلم ينشّط الحركة الفكرية والعلمية في المجتمع، وذلك من صالح العالم نفسه، حيث إن انتماءه لمجتمع حيوي له حركة معرفية، يزيد في نشاطه العلمي، ويدفعه أكثر للتفاعل والتقدم.

لكل ذلك يكون بذل العلم زكاة له، أي سببًا لنمائه وبركته.

بذل العلم

إنما يتوجه الإنسان لدراسة العلوم الدينية، والمعارف الشرعية، من أجل

---

[١] نهج البلاغة.

أن يمتلك هو البصيرة في دينه أولًا، ويعرف التكاليف الموجَّهة إليه، ولكي يقوم بهداية الآخرين وإرشادهم ثانيًا، يقول تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾[سورة التوبة، الآية:١٢٢].

والمهمة الثانية تترتب بشكل طبيعي وقهري على إنجاز المهمة الأولى، فإذا ما علم الإنسان وَفَقِهَ، فإنه يتحمّل مسؤولية تعليم الآخرين وتفقيههم، وإن لم يكن يستهدف ذلك منذ البداية.

بالطبع هنالك نصوص تتحدث عن المسؤولية تجاه العلم بشكل مطلق، أي كل علم يحتاج إليه الناس، ويستفيدون منه، في أمور دينهم أو دنياهم. روي عن الإمام موسى الكاظم ﷺ: «من أوجب حقّ أخيك أن لا تكتمه شيئًا ينفعه لا من دنياه ولا من آخرته»[١].

وجاء في حديث عن رسول اللّه ﷺ: «ثلاث من حقائق الإيمان... وبذل العلم للمتعلم»[٢].

وبذل العلم له عدة قنوات ووسائل، من أبرزها: التدريس والتأليف والخطابة. ونسلط الأضواء بشكل سريع على هذه المجالات الثلاثة، التي سلكها العلماء، لنشر علمهم وبثه وبذله في المجتمعات البشرية.

التدريس والتعليم

هو الطريق لتوارث العلم بين الأجيال، وانتقال الخبرات والمعارف،

---

[١] محمد رضا ومحمد وعلي الحكيمي. الحياة ج٢، الطبعة السادسة ١٤١٠هـ (بيروت: الدار الإسلامية)، ص٣٣٨.
[٢] بحار الأنوار. ج٢، ص١٥.

حيث يلتزم العالم مجموعة من الراغبين في العلم، ويواظب على تدريسهم وتعليمهم، ضمن منهج وبرنامج محدّد، يختلف من عصر إلى آخر.

والتدريس التزام يأخذ من جهد العالم ووقته، وهو من أبرز مصاديق بذل العلم، وأظهر تجليّات القيام بمسئوليته. لذلك يحذّر الإمام جعفر الصادق ﷺ من التهاون في أداء هذا الواجب حيث يقول فيما روي عنه: «إن من العلماء من يحبّ أن يخزن علمه ولا يؤخذ عنه فذاك في الدرك الأول من النار»[١].

وما نودّ الإشارة إليه ضرورة اتساع نطاق تدريس العلوم الدينية، لغير طلاب العلم المتفرغين، ففي مجتمعاتنا شريحة من المثقفين والمهتمين بالقضايا الفكرية والاجتماعية، لكن معرفتهم بالعلوم الدينية محدودة، وكأنها حكر على أبناء الحوزات العلمية، وهذا من أسباب الانفصال بين المثقفين وعلماء الدين، فينبغي أن يفتح المجال، وأن يتصدّى العلماء والفضلاء، لتشكيل الدروس في التفسير والعقائد والفقه والأصول وغيرها، لهذه المجاميع من الشباب ولو في بعض أيام الأسبوع، لتصبح لدينا طبقة مثقفة مستوعبة لمبادئ الإسلام ومفاهيمه وتشريعاته.

الكتابة والتأليف

لأن الإسلام مشروع حضارة، ودين علم ومعرفة، فقد أولى وسائل العلم وأدوات الثقافة، كل اهتمام ورعاية، لذا أشاد القرآن الكريم بالقلم

[١] بحار الأنوار. ج٢، ص١٠٨.

والكتابة، وجعله عنوانًا لسورة من سوره، وهي سورة القلم التي أقسم اللَّه تعالى في مطلعها بالقلم والكتابة ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. كما أن أول آيات القرآن نزولًا على رسول اللَّه ﷺ كانت دعوة إلى القراءة، وتذكيرًا بنعمة القلم ودوره في تعليم الإنسان، كأعظم نعمة على الإنسان بعد نعمة خلقه وإيجاده. يقول تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[سورة العلق، الآيات:١-٥].

والقلم كأيّ نعمة أخرى تحتاج إلى استثمار وتوظيف، إن الكثيرين ممن يمتلكون القابلية والاستعداد للكتابة والتأليف، قد لا يترجمون تلك القوة فعلًا في حياتهم، فلا يشهرون القلم سلاحًا في الدفاع عن مبادئهم، ووسيلة لحفظ أفكارهم وتجاربهم، ونقلها إلى الآخرين.

مع أن الإسلام في تعاليمه يؤكّد على كل من أُوتي نصيبًا من العلم، أن يحفظه بالكتابة لنفسه وللأجيال القادمة. فقد ورد في الحديث عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «قيّدوا العلم بالكتاب»[١].

ولا أكثر من أن يعتبر رسول اللَّه ﷺ دور الكتابة والتأليف أهم وأرجح من دور القتال في سبيل اللَّه حتى الشهادة، حيث ورد عنه ﷺ أنه قال: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء»[٢].

---

[١] كنز العمال. ج١٠ ص٢٤٩، حديث ٢٩٣٣٢.

[٢] المصدر نفسه. ١٠، ص١٧٣، حديث ٢٨٩٠٢.

انطلاقًا من هذه التوجيهات الإسلامية العظيمة، وإدراكًا لأهمية دور القلم في بثّ العلم ونشر المعرفة، بادر علماؤنا الأخيار لتحمّل مسؤولياتهم المبدئية في هذا المجال، وأثروا حركة الفكر البشري بإنتاجهم العلمي الغزير، في مختلف مجالات المعرفة والحياة.

ورغم أن بعضهم كان يعيش ظروفًا بالغة القسوة، وكانت تواجهه الصعوبات والعقبات، إلّا أن الهمّة العالية، وروح التضحية والعطاء، وأخلاقية المثابرة والاجتهاد، كل ذلك كان حافزًا لتجاوز التحدّيات والمعوّقات.

فالكتابة والتأليف يجب أن تكون جزءًا من برنامج حياة العالم إلى جانب سائر مهامه والتزاماته، ولا ينبغي الاعتذار بالانشغالات المختلفة عن هذه المهمّة الحساسة.

وفي هذا العصر والبشرية تعيش ثورة المعلومات والمواصلات، والعولمة الثقافية والإعلامية، فإن الأمة الإسلامية تواجه تحدّيات كبيرة في الحفاظ على هويتها، والتمسك بأصالتها، ومواكبة تطورات الحياة، ومعرفة الرؤية الدينية تجاه المشاكل الاجتماعية المعقدة، مما يستلزم حركة علمية وثقافية جادة واسعة.

وإذا كان العلماء السابقون قد كتبوا عن القضايا والمسائل المطروحة والمثارة في عصورهم، فإن علماءنا اليوم مطالبون بالتوجّه لمعالجة مشاكل الحياة المعاصرة.

ولا شك أن أجواء البحث والكتابة، وظروف التأليف والنشر، أصبحت الآن أكثر تهيؤًا وتوفرًا من الأزمان الماضية، مما يعني أن يكون العطاء الفكري، والإنتاج العلمي، أغزر وأوسع لعلماء ومفكري هذه العصور.

الخطابة

وإذا كان التدريس والتأليف متوجهًا للنخبة ولفئة محدودة من المجتمع، فإن الخطابة هي جسر تواصل العالم مع الجمهور وعامة الناس، وكما كان الأنبياء والرسل يبلغون دعوة اللَّه تعالى للناس كافة، فإن علماء الدين وهم ورثة الأنبياء وحملة رسالتهم، لا بد وأن يتخاطبوا مع جميع الناس، ولقد فرض الإسلام خطاب الجمهور كجزء من الصلاة في صلاة الجمعة والعيدين.

وخطاب الجمهور يقتضي البساطة والوضوح، فهو ليس كالدرس أو الكتابة، ضمن مستوى معيّن، وبمصطلحات علمية خاصة. لقد كان رسول اللَّه ﷺ وهو أعلم البشر يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم وفصائلهم، يخاطب كلًا منهم بما يفهمون، ويحادثهم بما يعلمون، ولذلك قال ﷺ: «أمرتُ أن أخاطب الناس على قدر عقولهم»[١].

وروى أبو داود في سننه حديث رقم ٤٨٣٩ أن كلام رسول اللَّه ﷺ

---

[١] محمد بن يوسف الصالحي الشامي. سبل الهدى والرشاد ج٢، ص٩٤.

كان فصلًا يفهمه كل من سمعه[١].

ومن الخطأ ما يشيع في بعض الأوساط العلمية من تنافي دور الخطابة الجماهيرية مع المقام العلمي الرفيع، وأن الخطابة عمل احترافي تقوم به فئة متفرغة له من ذوي المستوى العلمي المحدود، أما كبار العلماء فلا يناسب ذلك مقامهم وشأنهم!! وقد تحدث الشهيد السيد مهدي الحكيم في مذكراته أنه لما بدأ إلقاء المحاضرات الجماهيرية، جاء بعض العلماء إلى والده المرجع السيد الحكيم لينصحه بترك ذلك، لأنه لا يليق بشأنه ومكانته!!

إن في تاريخنا علماء فطاحل مارسوا الوعظ والإرشاد الجماهيري فكان لذلك أعظم الأثر في مجتمعاتهم كالمحقق الشيخ جعفر الشوشتري توفي ١٣٠٣هـ الذي يقول عنه السيد الأمين: كان عالمًا من أعلام العلماء فقيهًا واعظًا، له شهرة واسعة، واشتهر بالوعظ والخطابة، وكانت تجتمع الألوف تحت منبره لسماع مواعظه.. رجع إلى بلده تستر في إيران رئيسًا مطاعًا مرجعًا في التقليد والأحكام، وأخذ في الوعظ في شهر رمضان وغيره، ونبغ في ذلك بحيث لم يعهد له نظير، وترتب على وجوده آثار جليلة.. وحصل من وعظه هداية كثير من الناس[٢].

هكذا وعبر هذه الوسائل والقنوات، من تدريس وتأليف وخطابة، يمارس العالم دوره في خدمة الدين والأمة، ويعمل لنشر العلم والمعرفة،

---

[١] سبل الهدى والرشاد. ج٧، ص١٢٩.

[٢] السيد محسن الأمين. أعيان الشيعة ج٤، طبعة ١٤٠٦هـ، (بيروت: دار التعارف)، ص٩٥.

وبذلك يؤدّي زكاة علمه، وفي هذا العصر وحيث تعصف بالأمة التحديات، وتحدق بها المشاكل والأخطار، فإنه ينبغي إعلان حالة الطوارئ في حياة علماء الدين، بمضاعفة جهودهم، وتكثيف نشاطهم العلمي والثقافي والاجتماعي، حتى تتجاوز الأمة حالة الخطر الداهم.

■■■

المجتمع وعلماء الدين

يقاس تقدم المجتمع في أيّ مجال من المجالات بمقدار عدد المتخصصين فيه، والمتصدين له، فكلما كثر عدد الأطباء، كان ذلك مؤشّرًا على تقدّم المستوى الطبي والصحي في المجتمع، وكذلك فإن كثرة الأدباء تنبئ عن ارتفاع المستوى الأدبي، وهكذا في سائر المجالات.

لأن هناك علاقة جدلية بين الأمرين، فلولا وجود اهتمام بذلك المجال، لما توجه إليه عدد كبير من أبناء المجتمع، كما أن كثرة المتوجهين لأيّ حقل من الحقول تكرّس الاهتمام به وتوّسع رقعته.

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نعتبر نسبة عدد علماء الدين في البلاد واحدًا من أهم مقاييس الحالة الدينية في المجتمع؛ لأنه يكشف عن مدى اهتمام الناس بالدين، ومدى عمق الحالة الدينية وتجذّرها.

وكانت بلادنا المنطقة الشرقية قبل حوالي ثلاثة عقود من الزمن تعاني من قلّة وجود علماء الدين، وضعف الإقبال على دراسة العلوم الدينية،

فأكثر المدن والقرى لم يكن فيها عالم دين واحد، بل كان علماء الدين يعدّون على الأصابع في المنطقة، وأتذكر أن بعض العلماء في الهفوف أو المبرز كان يخصص ليلة في الأسبوع لهذه القرية أو تلك القرية، وفي بعض الأحيان ليلة من كل أسبوعين.

وفي القطيف كان بعض العلماء كالشيخ فرج العمران والشيخ عبد الحميد الخطي رحمهما اللّه تعالى، يقوم بجولة سنوية على بعض القرى، ويمكث في كل قرية بضعة أيام، لملْءِ شيءٍ من الفراغ في التوجيه الديني، الذي تعاني منه تلك القرى.

لكن، ومع الصحوة الدينية المباركة التي هبّ نسيمها على عالمنا الإسلامي، وشملت المنطقة بركاتها، أقبل عدد وفير من أبناء المنطقة وشبابها على دراسة العلوم الدينية، في بلادهم، وبالهجرة إلى أماكن الحوزات العلمية.

وبحمد اللّه تعالى فقد أصبحت بلادنا زاخرة بعدد طيّب من العلماء، وطلاب العلوم الدينية، ففي كل مدينة أو قرية هناك مجموعة منهم.

الدور المتوقع

إن مجتمعاتنا اليوم في حاجة ماسّة لتفعيل دور العلماء وطلاب العلوم الدينية، حيث تواجه طوفانًا من الإعلام والمعلومات، والثقافة الموجهة من قبل الحضارة الغربية المادية، بما تحمل من مفاهيم مغايرة، وما تبشّر به من قيم وأنماط سلوك مخالفة لقيمنا الإسلامية، وتعاليمنا الدينية. مما يستلزم

نشاطًا معرفيًّا مكثّفًا، وجهدًا ثقافيًّا كبيرًا، لحفظ الهوية، وحماية القيم.

إن التطورات المتلاحقة في العلم والتكنولوجيا، تثير أمام شبابنا العديد من التساؤلات العقدية والثقافية والأخلاقية، فلا بدّ من تصدّي العلماء العارفين بالدين، والواعين بمشاكل الحياة، للإجابة عن هذه التساؤلات والتحدّيات.

وهذا النشء الجديد من الفتيان والفتيات، الذي قد لا يتوفر له التوجيه الديني المطلوب ضمن العائلة والأسرة، نظرًا لانشغالات الوالدين، وتعدد اهتماماتهما غالبًا، أو لمحدودية مستواهما، فإنه بحاجة إلى الاستيعاب والتوعية بقيم الدين وأحكامه، وإلا كان عرضة للضياع والفساد، كما يحدث ذلك بالفعل لقطاع كبير من هذا الجيل.

وفي المجتمع مشاكل وقضايا تحتاج إلى التصدّي والمعالجة، والجهة الدينية بما يفترض لديها من وعي وإخلاص ونفوذ، هي الأقدر على تحمّل هذه المسؤوليات، والأكثر تفرغًا لها.

فالدور المتوقع من الوسط العلمي الديني هو بثّ معارف الإسلام، وتوفير التوجيه والتربية لجيل الناشئين، والتصدّي لمشاكل المجتمع وقضاياه.

واجب المجتمع

يتساءل البعض من الناس وهم يلحظون وجود عدد من المنخرطين في سلك العلوم الدينية، بزيّهم الخاص، ولباسهم المتميز، عن مدى الدور

الذي يقوم به هؤلاء العلماء والطلاب؟ ويبالغون في تحميلهم المسؤوليات، وفي التوقعات المنتظرة منهم.

ومع الإقرار بما تتحمّل هذه الفئة الدينية من مهام ومسؤوليات، وما يقع على عاتقها من وظائف وأدوار، لكن ما يغيب الحديث عنه هو التذكير بواجب المجتمع تجاه العلماء والطلاب.

فطالب العلم الديني إنسان متطوع لخدمة العلم والدين، يغامر بمستقبل حياته، حيث لا وظيفة مضمونة، ولا دخل ماليٍّ ثابت يعتمد عليه، ولا مؤسسة رسمية ينتمي إليها، وهو يتحمّل الغربة والهجرة في طلب العلم، ويتحمّل مواجهة التحديات المختلفة، وهو مسؤول عن وضع عائلته وأسرته، مما يجعله في أمسّ الحاجة إلى الدعم والعون، من أجل تلبية متطلبات الحياة، ليعيش كسائر أبناء مجتمعه من متوسطي الحال، وعلى صعيد أدائه لمهامه الدينية والاجتماعية، فإنه بحاجة إلى مواقف التشجيع والمساندة، ليتمكن من القيام بواجب الدعوة والتبليغ.

فهناك حقوق متقابلة، وواجبات متبادلة، بين العلماء والطلاب من جهة، والمجتمع من جهة أخرى.

وليس صحيحًا أن يطلب العلماء من المجتمع الاحترام والدعم، دون أن يقوموا هم بواجب بذل العلم، ونشر المعرفة، والاهتمام بأمور المجتمع.

كما لا يصح من المجتمع أن يتوقع من العلماء كل تلك الأدوار والمهام، دون أن يقف إلى جانبهم، ويقدّم لهم ما يحتاجون من مساعدة وعون.

المبادرة من العالم

طالب العلم الديني وقد انتهل من معارف الإسلام، واستوعب قدرًا من علومه وتعاليمه، وعاش في رحاب كتاب اللَّه، وسنة رسوله ﷺ، وسيرة الأئمة الهداة ﷺ، واقترب من حياة العلماء الصالحين، الذين تتلمذ على أيديهم، أو سمع وقرأ عن جهادهم وتضحياتهم، بعد كل هذا يفترض فيه أن يكون مبادرًا لتحمّل مسؤوليته تجاه الدين والمجتمع، يدفعه إلى ذلك خشيته من اللَّه تعالى ﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[سورة فاطر، الآية: ٢٨]، ورغبته في ثوابه، وإدراكه لمدى التحديات والأخطار التي تحيط بالدين والمجتمع.

وإذا كانت تواجهه بعض المصاعب الحياتية، والعقبات في طريق العمل، فعليه أن يتحلى بالصبر والاستقامة، وأن يحتسب ما يعانيه عند اللَّه تعالى، وأن يستحضر في ذهنه ونفسه ما تحمّله الأنبياء والأئمة والأولياء الصالحون في سبيل اللَّه، ومن أجل خدمة الدين، فقد تحمّلوا الجوع والفقر والعناء وألوان الأذى والتنكيل، ولم يثنهم شيء من ذلك عن القيام بواجب الدعوة إلى اللَّه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[سورة التوبة، الآية: ١٢٠].

والعلماء ورثة الأنبياء، ونوّاب الأئمة، وامتداد مسيرة الدعوة.

إن ما يراه طالب العلم في المجتمع من ضعف تجاوب واهتمام، هو نتيجة لقلّة التوجيه والتربية الدينية الإيمانية، وذلك يحمّله مسؤولية أكبر

في العمل والإصلاح، وقد أثبتت التجارب مدى تأثير التحرك والنشاط الذي يقوم به العلماء والطلاب في تغيير واقع المجتمع، وجعله أكثر تفاعلًا واهتمامًا بقضايا الدين، وأكثر اقترابًا والتفافًا حول العلماء.

ذلك أن الناس إذا لاحظوا من العالم الإخلاص والجدّ، وحسن الأخلاق وسعة الصدر، ورأوا آثار توجيهه وتوعيته في أوساط أبنائهم ومجتمعهم، وتصديه لقضاياهم ومشاكلهم، فإنهم سيقبلون عليه، ويلتفون حوله، ويبدون له كل دعم وتأييد.

التجاوب من المجتمع

حينما ندعو المجتمع لتقدير العلماء وطلاب العلوم الدينية، والالتفاف حولهم، والتجاوب معهم، فليس ذلك من أجل أشخاصهم، ولا لتوفير المكاسب الذاتية لهم، وإن كان العلم يستحق الإجلال والتقدير، لكن الهدف المقصود هو استثمار وجودهم، والاستفادة من الدور الذي يقومون به لمصلحة المجتمع.

وقد تكون هناك ملاحظات يبديها بعض الناس تجاه البعض من العلماء وطلاب العلوم الدينية، وتتعلق بالمستوى العلمي والثقافي، حيث يلحظون شيئًا من النقص والقصور لدى بعض الطلاب، وخاصة في مواكبة التطورات الفكرية والعلمية المعاصرة، مما يضعف قدرتهم في التخاطب مع المثقفين، والجيل المتعلم المنفتح على العصر. وملاحظات أخرى ترتبط بسلوكيات وأخلاقيات التعامل، كالتعاطي بطريقة فوقية مع الناس، واستخدام أسلوب الهيمنة والاستبداد دون إتاحة الفرصة للحوار

والنقاش، وبالتالي عدم احترام الرأي، وقبول النقد من الآخرين.

ولسنا بصدد ردّ هذه الملاحظات أو رفضها، فأفراد هذه الطبقة ليسوا معصومين، وكأيّ شريحة من شرائح المجتمع، تتفاوت فيها المستويات، وتكون فيها عناصر غير ملتزمة أو غير لائقة.

تجد هذا الأمر في الأطباء والمهندسين والمعلمين وغيرهم، حيث فيهم المتفوق، ومتوسط المستوى، وضعيف الكفاءة، وفيهم المخلص الأمين، والمتساهل، وسيئ التصرف.

ولكن، لا يصحّ التعميم، وأخذ انطباع عن الكلّ من خلال عنصر أو أكثر.

من ناحية أخرى، فإن بعض الملاحظات يمكن معالجتها بالنصيحة والترشيد، وبعض طلاب العلوم الدينية قد تعوزه الخبرة والنضج، لحداثة تجربته الاجتماعية، فإذا ما أعطي الفرصة الكافية، وقدّمت له النصيحة والنقدّ البناء، فسيتجاوز ما يعانيه من ضعف أو نقص.

إن الدراسة العلمية النظرية شيء، والممارسة التطبيقية الاجتماعية شيء آخر، فمهما درس طالب العلم الديني، وحقّق من تقدّم علمي، فإنه بحاجة إلى فترة من الخبرة والتجربة العلمية، لتُصقل مواهبه، وتتكامل شخصيته.

فإذا ما رأينا نقصًا أو ضعفًا عند أحدهم، فلا يصحّ أن نلغيه من الحساب، ونسقطه من الاعتبار، بل علينا أن نساعده في تجاوز ضعفه، وتلافي نقصه.

تقدير الكفاءة

مما يُفخر به في بلادنا، ويستحق الاعتزاز والفخر، بروز مجموعة من الكفاءات والقدرات العلمية الناضجة، خلال هذه الفترة، فيهم العالم الفاضل، والخطيب المتميز، والمفكر العارف، والكاتب القدير، والقيادي المتصدّي لأمور المجتمع.

وهذه نعمة كبيرة نشكر اللّٰه تعالى عليها، ويجب أن نقابلها بما تستحق من التفاعل والتجاوب، حتى تأخذ هذه الكفاءات مداها في خدمة الدين والوطن.

إن البعض من الناس لا تملأ عينه كفاءات بلده، وينبهر دائمًا بمن هم خارج بلده فقط، ويحصل أحيانًا أن يُبخس حق بعض الكفاءات لتصنيفات طبقية أو فئوية، فلأنه من أسرة ضعيفة الحال، أو من أتباع المرجع الفلاني، تتجاهل مكانته، ولا تقدّر كفاءته، وهذا ظلم وعدم إنصاف، وحرمان للمجتمع من الاستفادة من طاقات أبنائه. إن اللّٰه سبحانه يحذّر وينهى عن بخس الحقوق، حيث يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾[سورة الأعراف، الآية: ٨٥]. وقد تكرّر هذا النص ثلاث مرات في القرآن الكريم، في سورة الأعراف آية ٨٥، وسورة هود آية ٨٥، وسورة الشعراء آية ١٨٣.

والبخس هو إنقاص الحق، سواء كان حقًّا ماديًّا أو معنويًّا، والتعبير بـ ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ يشمل الجانبين المادي والمعنوي لأي إنسان، مسلمًا كان أو كافرًا، ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ﴾.

■■■

آفاق أخرى للعمل الديني

حينما يتوجّه إنسان إلى دراسة علوم الشريعة، وينتمي إلى سلك علماء الدين، فهذا يعني أنه قد نذر نفسه لخدمة الإسلام، وأصبح جنديًا متطوعًا لنشر العقيدة والمبدأ؛ ذلك لأن المعرفة بالدين والعلم بأحكامه، تحمل الإنسان مسؤولية التبليغ والتعليم، فالتفقّه في الدين مقدمة لإنذار الناس وتوجيههم، كما يقول تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[سورة التوبة، الآية: ١٢٢].

فبمقدار ما يتعلّم الإنسان من الدين، عليه أن يبذل علمه للآخرين، وكلما كان نصيبه من العلم أكثر، بنفس القدر تتضاعف مسؤوليته في نشر معارف الدين، وتوضيح أحكامه ومفاهيمه.

وخاصة في الظروف الحساسة حينما يحصل انحراف عن المنهج القويم أو تحريف في شيء من أصول الرسالة ومبادئها، أو حينما تعصف بالأذهان

شبهات الأعداء، وتضليلات المخالفين، فإن وظيفة العلماء وواجبهم في تبيين الحقائق والدفاع عن المبادئ يصبح أكثر ضرورة وإلحاحًا.

يقول اللّه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٥٩].

وورد في الحديث عن رسول اللّه ﷺ: «إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة اللّه»[١].

وإذا كانت وظيفة العالم تبيين حقائق الدين، والدفاع عن مبادئه، فإن تجلّيات القيام بهذه الوظيفة، والاضطلاع بهذا الدور، يكون على صور وأشكال مختلفة، وعبر أساليب ووسائل متعددة، حسب اختلاف الظروف والأوضاع الزمانية والمكانية والاجتماعية.

الدور المألوف

لكن الملحوظ أن هناك أدوارًا مألوفة وتقليدية يمارسها أغلب المنتمين إلى سلك العلوم الدينية، ففي الحوزات العلمية غالبًا ما يتوجّه أكثرية العلماء والطلبة إلى الدرس والتدريس، والبحث في علمي الفقه والأصول، والتصدّي للمرجعية والإفتاء.

وفي المجتمع عادة ما ينحصر دور عالم الدين في المحراب والمنبر، وما يتبع ذلك من إجراء العقود، وقبض الحقوق الشرعية، والإجابة عن

---

[١] وسائل الشيعة. ج١٦، ص٢٦٩، حديث ٢١٥٣٨.

المسائل الفقهية، وهذه الأدوار مطلوبة ومهمة، لا يمكن الانتقاص منها ولا الاستغناء عنها، لكن ما يستوجب الملاحظة والاهتمام هو انحصار التوجه والتصدي في حدود هذه الأدوار المألوفة والمتعارفة، مع وجود فراغ وحاجة ماسة في بقية الجوانب والمجالات.

فمثلًا على الصعيد العلمي يبذل العلماء في الحوزات الدينية جهودًا ضخمة من أوقاتهم وأفكارهم في بحث مسائل الفقه والأصول، ويتمتعون بعقلية وقادة، وعمق مدهش، في استقصاء كل الاحتمالات والافتراضات ومناقشتها بجدّية وإتقان، وهذا يدعو إلى الاعتزاز والافتخار ببراعتهم وإخلاصهم العلمي.

وظائف شاغرة

لكن التقدم العلمي الكبير في مجالي الفقه والأصول لم يواكبه تقدم في مجالات العلوم الشرعية الأخرى، كعلم التفسير، والحديث، والعقائد، والتاريخ، والاجتماع، والأخلاق...

نعم، هناك مبادرات فردية رائدة في بعض هذه المجالات، كتوجّه العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي لتفسير القرآن حيث أنجز تفسيره الرائع (الميزان) فشكّل به إضافة ذات قيمة عالية في مجال التفسير، وكذلك توجه العلامة الشيخ عبدالحسين الأميني في مجال العقائد عبر موسوعته المهمّة (الغدير)، واهتمام الشيخ آغا بزرك الطهراني برصد مؤلفات وأبحاث علماء وأدباء الطائفة الشيعية، حيث أصدر موسوعته (الذريعة)، ولا بدّ من الإشارة إلى بحوث الشهيد السيد محمد باقر الصدر الإبداعية في مجالات

الفلسفة والاقتصاد والمنطق في كتبه الثلاثة (فلسفتنا ـ اقتصادنا ـ الأسس المنطقية للاستقراء).

لقد كان بإمكان السيد الطباطبائي والشيخ الأميني والشيخ آغا بزرك الطهراني، أن يجاروا أقرانهم وأندادهم من العلماء الفقهاء في الانشغال بأبحاث الفقه والأصول، وفي التصدي لمقام الإفتاء والمرجعية، لكنهم شخّصوا الحاجة والفراغ في المجالات الأخرى، فاتجهوا لها، ووظّفوا حياتهم لخدمتها، فجزاهم اللهً عن الإسلام وأهله خير الجزاء.

لكن أمثال هذه الشخصيات محدودة، وتعدّ على الأصابع، في مقابل توجّه المئات من العلماء المحققين البارعين للمجال المألوف والمعتاد في الحوزات العلمية.

وأكرر هنا أني لا أقصد التقليل من مكانة أيّ عالم خدم الشريعة في أيّ مجال من مجالات العلم، ولا أنكر أهمية علمي الفقه والأصول، ولا أستهين بدور الإفتاء والتصدي المرجعي، لكني أعتقد بضرورة ملء الفراغات المعرفية الأخرى أيضًا، وتطوير أبحاثها، ومعالجة إشكالاتها ومسائلها، بنفس الدرجة من العمق والاهتمام الذي ينصبّ على علمي الفقه والأصول.

هذا على صعيد الحوزات العلمية.

وظائف اجتماعية

وأما على الصعيد الاجتماعي، فإن هناك أدوارًا عديدة شاغرة ينبغي أن

يتوجّه لها علماء وطلاب العلوم الدينية الذين يعملون في الوسط الاجتماعي، غير الدور التقليدي المألوف من منبر ومحراب، كما تقدم.

فمجتمعاتنا بحاجة إلى مؤسسات أبحاث ومراكز دراسات، ترصد أوضاع المجتمع، وتتابع تطوراته، وتشخص احتياجاته الفكرية والتربوية، ثم تضع المناهج والبرامج التوعوية التثقيفية، وتعيد صياغة الأفكار والمفاهيم الإسلامية، بما يتواكب ويتناسب مع التحدّيات المعاصرة.

كما تشتدّ الحاجة في هذا العصر إلى المؤسسات الإعلامية الإسلامية، من قنوات فضائية، ومواقع على الإنترنت، وإصدار المجلات والجرائد، وتوظيف مجالات الفن لصالح قضايا الإسلام والأمة.

إن هذه الحقول وأمثالها ينبغي أن تتوجّه إليها الطبقة الدينية، وتهتم بها، وتتصدّى لملء الفراغ فيها.

لكن جزءًا كبيرًا من المشكلة يكمن في أن مجتمعاتنا لا تنظر لمثل هذه الأدوار بنفس نظرة التقدير والاحترام التي توليها لمن يتصدى للأدوار التقليدية المألوفة، وبالتالي لا تقدّم له الدعم والتشجيع المطلوب، مما جعل أكثرية أبناء السلك العلمي الديني لا يرون أنفسهم، ولا يشعرون بأدائهم لوظيفتهم وواجبهم إلّا ضمن هذه الأدوار المعتادة.

بالإضافة إلى أن تلك الأدوار التقليدية المألوفة، لها أعرافها وضوابطها الواضحة، ومن يتصدى لها يجد أمامه نماذج وتجارب كثيرة، تمنحه الاطمئنان، وتعطيه الخبرة، فهو ليس مقدمًا على مهمة غامضة، ولا دور مجهول.

بينما التوجّه للآفاق الأخرى، والتصدّي للمهام الجديدة، يصبح شبه مغامرة، وتكتنفه مختلف العوائق، ويحتاج إلى جهد كبير للتأسيس، وتوفير فرص النجاح. فلا يقدم على ذلك إلّا الواعون المستعدون لتحمّل الأعباء والمشاق في سبيل خدمة الأهداف الدينية السامية، ومن أجل إصلاح مجتمعاتهم وتقدمها.

■ ■ ■

المحتويات

هذا الكتاب

ومع تطور تكنولوجيا التواصل والاتصالات فإنه يمكن تسجيل وتوثيق كل كلمة تلفظ، أو حركة تحدث في أيّ بقعة من العالم، ويمكن تخزينها واستدعاؤها عند الطلب والحاجة. وأصبح الإنسان اليوم أكثر ثقة بنفسه، حيث لا يحجم عن التفكير في أيّ أمر، ولا يتردد في تقرير أيّ رأي وموقف يقتنع به.

كما تعززت لدى الإنسان المعاصر جرأة التعبير عن رأيه، حيث تقلصت سلطات القمع والبطش، وأمكن تجاوز حواجزها ورقابتها إلى حدٍ كبير.

ونصل في هذا السياق إلى الحديث عن مواقع القدرة المعنوية المتمثلة في المؤسسة الدينية والقيادات الروحية من علماء الدين، فهل هم في منأى عن هذه التطورات؟

هل يحظون اليوم بذات الدرجة التي كانوا يتمتعون بها في الماضي من الهيبة والتقديس؟

هل لا يزال علماء الدين والمؤسسة الدينية منطقة محظورة لا يقتحمها النقد والاعتراض؟

ضمن هذا السياق جاءت فكرة كتابة هذه الصفحات الماثلة بين يدي القارئ الكريم، حيث تناقش بعض ما يثار حول الخطاب الديني وأداء المؤسسة الدينية، والممارسة السلوكية لبعض المنتمين إليها.

ISBN 978-603-00-9073-0
9 786030 090730

أطياف للنشر والتوزيع
هاتف/فاكس: ٨٥٤٩٥٤٥ (٣) ٩٦٦+
جوال: ٠٥٠٥٨٦٨٧٧١ - ٩٦٦+
القطيف - شارع القدس
ص.ب. ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١
المملكة العربية السعودية
E mail atyaf-pd@hotmail.com

تصميم الغلاف: سامح خلف